

فصل

في فتح شقيف ارنون

قال القاضي ابن شداد: وهو موضع حصين، قريب من بانياس، خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونزل من الغد يوم السبت في مرج برغو، فأقام به والعساكر تتابع إلى حادي عشر، ورحل إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون، فخيم به وهو قريب من شقيف ارنون بحيث يركب كل يوم يشارفه، ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف، والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد، وصاحب الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة، فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه وما أحسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده أناة، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، واقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يمكن من الاقامة بموضعه، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغل هذه السنة، فأجيب إلى ذلك كله، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت وينظرنا في صحة دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاوره متأدباً في كلامه، ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة

لأنه صادق في ذلك وإنما قصد به تدفيع الزمان، وظهرت لذلك مخايل كثيرة من الخوض في تحصيل الميره، وإتقان الأبواب، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة إليه، وأظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان، والفرار من وخم المرج، فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فمأطله السلطان، وماأنسه وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجماعة، ونأخذ رأيهم، ثم وكل به من حيث لا يشعر إلى أن كان من أمره ما سيذكر.

قال: وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشوبك، وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدة سنة حتى فرغت أزوادهم وسلموه بالامان.

وقال العماد: كان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، وقد أكمل في حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السلطان وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر أنه محترز من علم المركيس لعنه الله بحاله، فلا يسلم من جهله وحينئذ يسلم الموضع بها فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه، ويخدمه على اقطاع يغنيه، وعن حب أهل دينه يسليه، فأكرمه وقربه، وقضى أربه، وأجابه إلى ما سأله، وقبل منه عزيزاً مابذله بذله، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة ووجد إليه سكوناً وسكينة، فشرع أرناط في إزالة وهنه، وترميم مستهدمة وتوفير غلاله، وتدبير أحواله ونحن في غرة من تحفظه، وفي سنة من تيقظه، وكان يتتاع من عسكرنا الميرة، ويكثر فيه الذخيرة، وقد أضمر الغدر، وظن أن له النصر، والسلطان حسن الظن به، يحمل صدق الواشي به على كذبه، وكان انتهاء المدة يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة، وأقام السلطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهدنة وتسليم الحصن، وخاف إن فارقه أن تجيء امداد الفرنج اليه، وكان مشفقاً أيضاً من جانب أنطاكية لانتهاء أشهر هذنتها، فكتب إلى تقي الدين بالمقام في تلك الخطة، وسير بذلك

الفقيه عيسى الهكاري، ولم يستدع إلا صاحب آمد قطب الدين سكران ابن قرا أرسلان، فجاء في أمداه وأعداده، ولازم السلطان فلما قرب انتهاء مدّة صاحب الشقيف أحضره السلطان فتصرّع، وقال: إن قومي إلى الآن لم يخلصوا من صور، وقد أنعمت فأتمم وسأل أن تكون المهلة سنة، فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب، فكلمه بإيناس وما ردّه بياس، فأرخصى طولته، وأرجى أمله، وأمر السلطان بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقي من الهدنة يومان، فتضور صاحب الحصن فقبل له تقيم عندنا في كنف الأمان، فبكى وتألّم من ضبطه وانكشفت سريرته الغادرة، فأمر بحمله إلى الشقيف حتى يسلمه ووكّل به وحفظ من حيث لا يعلم، وقيل لعله يحسن ولايجوج إلى المقابحة ويسلم، وقيل له قد بقي يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم، فأبدى ضرورة وضراعة وقال: سمعاً وطاعة، وكان له ملقى وملق، وفي لسانه ذلق، وما عنده من كل ماتفرق فرق، وقال: أنا أنفذ إلى نوابي في التسليم، وهو قد تقدّم إليهم بالوصية والتعليم، فأظهروا عصيانهم، وقالوا يبقى مكانه، فقيّد وحمل إلى قلعة بانياس، وبطل الرجاء فيه وبان الياس، ثم استحضر في سادس رجب وهدده وتوعده، فلما لم يقد خطابه، ولم يجد عذابه، سيره إلى دمشق وسجنه ورتب عدة من الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم.

فصل

وفي مدة مقام السلطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف أرنون ،
اجتمعت الفرنج وجرت لهم مع المسلمين وقائع.

قال القاضي ابن شداد: كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم
عسقلان أنه إن أمر الملك من بها بتسليمها أطلقه، فأمرهم بتسليمها
وسلموها، فطالبه الملك باطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن
الاکراد، أطلقه من انطرسوس واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سيفاً
أبداً، وأن يكون مملوكه وطليقه، فنكث لعنه الله وجمع الجموع وأتى صور
يطلب الدخول إليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في
ذلك الوقت، وكان المركيس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد
وصرامة عظيمة، فقال له: إنني نائب الملوك الذين وراء البحر وما أذنوا
لي في تسليمها إليك، وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على أن
يتفقوا جميعاً على المسلمين وتجتمع العساكر التي بصور وغيرها من
الفرنجية على المسلمين، وعسكروا على باب صور، ولما كان يوم الاثنين
سابع عشر جمادى الأولى بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد
قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وهي الأرض التي
نحن عليها، فركب السلطان نحو اليزك فوصل وقد انفصلت الواقعة،
وذلك أن الفرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض إليهم يذك الاسلام
وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف
ماقتلوا، ورموا في النهر جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك
للسلطان يعرف بأبيك الاخرش، وكان شجاعاً باسلاً مجرباً للحرب
ممارساً فتقطر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم
بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا عليه فقتلوه، وفي يوم الأربعاء
تاسع عشر جمادى الأولى ركب السلطان يشرف على القوم على عادته ،

فتبع العسكر خلقاً عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وحرص رحمه الله في ردهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر، وناوشوا العدو، وعبر منهم جماعة إليهم وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع لهم من الفرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيداً منهم ولم يكن معه عسكز فإنه لم يخرج للقتال، وإنما ركب مستشرقاً عليهم على العادة في كل يوم، ولما بان له الوقعة، وظهر له غبارها، بعث إليهم من كان معه ليردوهم، فوجدوا الأمر قد فرط، والفرنج قد تكاثروا، حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفراً عظيماً، وأسروا جماعة وعدّ من قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفرنج أيضاً عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدّم الألمانة، وكان عندهم عظيماً محترماً، واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الأمير غازي سعد الدين مسعود بن البصار، وكان شاباً حسناً شجاعاً، واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة، على ما ذكره جماعة لازموه.

قال: وهذه الوقعة لم يتفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المدة، ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين من هذه الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرّر معهم أنه يهجم على الفرنج، ويعبر على الجسر، ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صمم العزم على ذلك، رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها، فرأى رحمه الله أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بني من سورها ويحث على الباقي، فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا فرتب

أحوالها، وعاد إلى العسكر بمرج عيون منتظراً مهلة صاحب الشقيف، ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أن جماعة من رجالة العدو يتبسطون، ويصلون إلى جبل تبنين يجتطبون، وفي قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم، فرأى أن يقرر قاعده كمين يرتبه لهم وبلغه أنهم يخرج وراءهم أيضا خيل تحفظهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عابرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها لهم، وأن يكون ذلك صبيحة الاثني عشر من جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين حتى قطع تبنين، ورتب العسكر ثمانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً وأمرهم أن يترأوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك لعنه الله، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر، وقد هجم الليل فبعث بعوثاً كثيرة فعاد الفرنج ناكسين على أعقابهم، وقتل من الفرنج عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة: اثنان من الترك، وأربعة من العرب منهم الأمير زامل، وكان شاباً حسن الشباب يتقدم عشيرته، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ. وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة.

قال: ومن نوادر هذه الواقعة أن مملوكاً من ممالك السلطان يقال له أيبك أنخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دماً، وبات ليله أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه فلم

يجدوه فعرفوا السلطان فقده، وأنفذ من يكشف عن حاله فوجدوه بين القتلى فحملوه إلى المخيم، وعافاه الله، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر فرحاً مسروراً.

وقال العماد: اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الأسر، وقالوا: نحن في جمع جم خارج عن الحصر، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر فثربنا للشار، وأعرنا من هذا العار، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، واتفقوا أنهم يقصدون بلداً إسلامياً من الساحل، ويقيمون عليه والمركيس يمدّهم من صور بالمدد والعدد، ثم جاء الخبر أنهم على قصد صيدا للحصر، وقد جسرنا على عبور الجسر، ووقعت عليهم اليزكية فردوهم، ووقع في الأسر من سباعهم سبعة، فحملوا إلى سجن دمشق، ثم ذكر قتلهم للغزاة المطوعة على الجسر، وقال: لم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكره، وأذاقونا بعد أن حلالنا جنا الفتوحات مرارة هذه المرة، فأيقظنا الله من رقدة المغره، وأخذ الناس حذرهم، وقالوا: بهذا وعد الله حيث قال: (فيقتلون ويقتلون)^(٨٩) وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمثلون، ثم ذكر وقعة الكمين. قال: وكان مع المسلمين أربعة من أمراء العرب، فحملوا كما وصاهم السلطان على عزم الطراد ليقصدوا الكمين، وسلخوا أسفل الوادي، وإنما الطريق أعلاه، ولاخبرة لهم بتلك الأرض، فعرف الفرنج أنهم ضائعون فطاردوهم وردّوهم إلى المضيق، وأنفت العرب من الهزيمة فاستشهدوا، قال: وكان معهم مملوك للسلطان يقال له أيك الساقى فاعتزل إلى صخرة واحتمى بها، ونكب كنانته ورماهم بنشابها، وهم لايقدرن على الاقتحام إليه بالخيل، فرموه بالزنبورك، حتى كثرت فيه الجراحات، وظنوا أنه قد مات، ووصل الخبر إلى المسلمين فأدركوهم، ووقفوا على الشهداء وقبروهم، وجاؤوا إلى أيك فوجدوا فيه الروح فنقلوه إلى الخيام، وهم يظنون إنه لاخلاص له من الحمام، وكان في أجله باقية. فمن الله عليه بالعافية.

فصل

في نزول الفرنج خذهم الله على عكا

قال القاضي ابن شداد: ثم بلغنا بعد ذلك أن الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النواقر يريدون جهة عكا، وأن بعضهم نزل باسكندرونه، وجرى بينهم وبين رجاله المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك، ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لا قصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب فوصل قاصد أخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصبه، ووصل أوائلهم إلى الزيب، فعظم عنده ذلك، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل، وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو، وسير جماعة على طريق تبين يستشرفون العدو ويواصلون بأخباره، وصرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له مينة صبيحة الثلاثاء وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه، واشتد حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً، وسار السلطان جريدة من المينة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبين بمرج صفورية فإنه كان واعدهم إليه، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير، وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا،

فنزّل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، فكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الإسلامي بالعدو، وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب، وتلاحقت العساكر الإسلامية، واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لا يخرج منها أحد إلا يجرح أو يقتل، وكان عسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلين قريباً من باب البلد، وكان عدد ركبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، قال: ومارأيت من نقصهم عن ذلك، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر لا ينقطع. وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهافتون على قتالهم، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والأمراء من الأقطار تتابع، ووصل تقي الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين، وفي أثناء هذه الحال توفي الحسام سنقر الخلاطي وفاة بأسها شديد، وكان شجاعاً ديناً، فأسف المسلمون عليه.

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا، بحيث منعوا من الدخول والخروج منها، وذلك سلخ رجب، فعظم على السلطان وضاق صدره وثارته همتها العالية في فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة، فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدو إلى أن ملكوا التلول، وكانت ميسرة عسكرهم إلى البحر الحلو أخذة إلى البحر الملح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا، واتصلت الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل، وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين في السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الأخرى، وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا، فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، والتفت

السالمون منهم إلى خيامهم و هجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم، ووقف اليزك الاسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذي جدده، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة، واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا، وركب على السور، ونظر إلى عسكر العدو وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال، وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من ورائه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعاني هذه الأمور كلها بنفسه، ويصافحها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدّة حرصه، ووفور همته كالوالدة الثكلى، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الاحد لم يتناول من الغداء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وفعلوا ماكان عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترانس، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان، عزم العدو على الخروج بجموعهم، فخرج راجلهم وفارسهم، وامتدوا على التلول وساروا الهويّنا غير مفرطين في نفوسهم ولاخارجين من راجلهم، والرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك، فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا بأجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصاً على عقبيه والسيّف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح، والعاطب طريح، يشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم، ولايلوي الجماعة منهم على قبيلهم، حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً، وكان قصاراهم أن يحفظوا

نفوسهم، ويجرسوا رؤوسهم ، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها.

قال: وكنت ممن دخل ورقى على السور، ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار حتى كان الحادي عشر من شعبان، ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثقل إلى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلين مشرف على عكا وخيام العدو، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان، وكان من شجعان المسلمين ودفن في سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان، وبلغ السلطان أن جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم، فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه، وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جمع عظيم من الطائفتين، وطال الأمر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسبي ونهب، وأنس البعض ببعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا، وصبي منكم، فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض، وأخذه أسيراً فاشترته منه بعض الفرنج بدينارين، وقالوا: هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر، وما زال يسبح وهم حوله يرذونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون.

قلت: وذكر العماد كل هذه الوقائع والنوادر في كتابه بألفاظه المسجوعة، وقال: كان من رأي السلطان أن يسايرهم في الطريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النزول، فإنهم إذا نزلوا صعب نزالهم، وأتعب قتالهم، وقالوا: — يعني أمراءه — بل نمضي على أسهل الطرق، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحه، وسرنا على جب يوسف إلى المينه، وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا، ونزل يوم الأربعاء على جبل الخروبة، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق خيمه على تل المصلبة، وربط مراكبهم بشاطئ البحر فكانت كالأجام المؤتسبه، ثم عبر السلطان بجيشه ونزل بمرج عكا على تل كيسان، وصرنا محاصرين المحاصرين، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط، واستشطننا منه وهو مستشيط، واحدقنا بأولئك الكفرة إحاطة النار بأهلها، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها، ورتبنا بالزيب والنواقر رجالاً يصدونهم عن سبلها، ودمنا نصدهم ونصدمهم، ونوجدهم في البحر ونعدمهم، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرز وذلك في آخر رجب لانسلاخه، و الاسلام ينادينا باستصراخه، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد اتفقت الآراء على أن يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الإسلامية، فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكدر عليهم صفو مشاربهم وقلل مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون، كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ما إليها مدخل، وكالسور المحيط ماعليه متسلق وكالجلب الأشم مافيه متعلق، فزحفنا إليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز، وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا فانهمز الفرنج إلى تل المصلين نحو القبة، وثبتوا عند الوثبة،

وانفتح لنا طريق عكا فدخلها الرجال، وحملت إليها الغلال، والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا، وأصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة، فتوقفوا عن تمام العزيمة، ولو أنهم استمروا لباد العدو بصرعه، فإن للصدمة الأولى في الروع روعه، فبلع العدو ريقه، ووجد إلى الجلد طريقه، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات، وضربوا الجروح وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها وكانوا في عدد الرمل ومذد النمل، وهم في كل يوم في ازدياد، والبحر يمدهم بالامداد، وشرعوا في حفر الخنادق، وسد المضائق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للمسلمين في ليلهم قائم بأمرهم في نهارهم، ومن كتاب فاضلي في بعض الوقعات: «فاستدارت بهم رجال الجاليشية تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيور نشابها، وتجنبيهم من القنا والنشاب ثم الردا متشابها، وقد ارتفع الاسلام إلى درجات سيدكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمر ذكرها، فالنصر خافق علمه، وكتاب البشارة قد استمد قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسار، واعدت ألفاظه البشرية المهداة إلى كافة البشر من الاستبشار، فإن الفرنج محصورون، والنازل المحصور كالمركب المكسور، والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجور .

فصل

في المصاف الاعظم على عكا وهي الواقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى

قال القاضي ابن شداد: لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة، فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم، واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بشوب أطلس مغطى يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه وهم يسرون بين يدي الملك، وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التلال، فكان طرف ميمنتهم إلى النهر، وطرف ميسرتهم إلى البحر، وأمر السلطان الجاوش أن ينادى في الناس: يالاسلام وعساكر الموحدين، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة، وامتدت الميمنة إلى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً، وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبئة الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولده الأفضل ثم ولده الظافر ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البكنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس، ثم قايماز النجمي، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر، وأما أوائل الميسرة فكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم، والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكرارية، ومجاهد الدين يرناقش مقدم عسكر سنجار وجماعة

من المالك، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره، وأواخر
الميسرة كبار المالك الأسيدي كسيف الدين يازكوج ورسالن بغا،
وجاعة الأسيدي الذي يضرب بهم المثل وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى
وجعه، هذا والسلطان رحمه الله تعالى يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم
على القتال، ويدعوهم إلى النزال، ويرغبهم في نصرة دين الله، ولم يزل
القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار، ومضى فيه أربع
ساعات، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين وأخرج
لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة، وتكاثروا على تقي
الدين، وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم
لعلهم يتعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً، فلما رآه السلطان قد
تأخر ظن به ضعفاً فأمدّه بأطلاب عدّة من القلب حتى قوي جانبه،
وتراجعت ميسرة العدو، واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى
الذين في مقابلة القلب ضعف القلب، ومن خرج منه من الأطلاب
داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة الرجل الواحد
راجلهم وفارسهم، قال: ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة
ولا يسبقونها وهم يسرون خيلاً وجاءت الحملة على الديار بكريّة كما شاء
الله تعالى، وكان بهم غرة عن الحرب، فتحركوا بين يدي العدو وانكسروا
كسرة عظيمة، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو
المنهزمين إلى العياضية، فإنهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من
العدو إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك، وفي ذلك اليوم
استشهد اسماعيل المكبس، وابن رواحة رحمهما الله تعالى، وأما الميسرة فإنها
ثبتت فإن الحملة لم تصادفها وأما السلطان رحمه الله فإنه أخذ يطوف
على الأطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد،
وينادي فيهم: يا لاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف،
ويتخرق الصفوف، وأوى إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام، وأما
المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الأقحوانة قاطع جسر

طبرية، وتم منهم قوم إلى دمشق، وأما المتبعون لهم فإنهم أتبعوهم إلى العياضية فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم وجاؤوا عائدتين إلى عسكرهم، فلقبهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على فعال الخمل فقتلوا منهم جماعة، ثم جاؤوا على رأس السوق فقتلوا جماعة، وقتل منهم جماعة، فإن السوق كان فيه خلق عظيم، ولهم سلاح وأما الذين صعدوا الخيم السلطانية فإنهم لم يلتمسوا شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرناه وهم ثلاثة نفر، ثم رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتم، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو، فلما رأى الفرنج نازلين على التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم، فصاح في الناس وحملوا عليهم وطرحوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاثرت الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم والطردهم وراءهم، فلما رأهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل، وأنه إنما نجا منهم هذا النفر فقط، وأن الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة، وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة، وتحايا الرجال وتداعت، وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الأيمان، وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكر العدو، فهجم المسلمون عليهم في الخيام، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها خشية من هذا الأمر مستريحة، فردوا المسلمين، وكان التعب قد أخذ من الناس والخوف والعرق قد أجمعهم، فتراجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين، وعاد السلطان وجلسوا في خدمته يتذاكرون من فقد منهم، فكان مقدار من فقد منهم من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفرًا، ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى رحمه الله، ولقد رأيت وهو جالس يضحك

والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لا يوم العزاء، وكان قد وقع هو من فرسه رحمه الله وأركبه، وقتل عليه جماعة من أقاربه، وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي يعني ابن مراون، وزاد العماد: والحاجب خليل الهكاري.

ثم قال القاضي: هذا الذي قتل من المسلمين وأما العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف، ولما تم على المسلمين من الهزيمة ماتم رأى الغلمان خلوا الخيام عمن يعترض عليهم فإن العسكر انقسم إلى منهزمين، ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد، ورأوا الكسرة قد وقعت فظنوا أنها تتم وأن العدو ينهب جميع ما في الخيم، فوضعوا أيديهم في الخيم ونهبوا جميع ما كان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا، فلما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ما قد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع في الكتب والرسول في رد المنهزمين، وتتبع من شذ من العسكر والرسول تتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبه فيق فردوهم وأخبروهم بالكرة للمسلمين، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان، وجمع الأقمشة في خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي، وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم إلى أن كل من عرف شيئاً وحلف عليه يسلم إليه، وهو يتلقى هذه الأحوال بقلب صلب، وصدر رحب، ووجه منبسط ورأي مستقيم، واحتساب لله تعالى، وقوة عزم في نصر دينه.

وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم، وقعدت ملوكهم، وطرحت مقدموهم، وأمر السلطان أن يخرج من عكا عجل يسحبون القتلى إلى طرف النهر ليلقوا فيه.

قال: ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخذ خيطاً، وكان

كل ما أخذ قتيل عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسراً، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدّهم فإنهم ولي أمرهم غيره، وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه، وأقاموا في خيمهم لم يكثرثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشذب من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة، فإنه مارجع منها إلا رجل معروف خاف على نفسه والباقون ذهبوا في حال سبيلهم، وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، وأقام المنادية في العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته حتى أن الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر، وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وصار من عرف شيئاً وأعطى علامته حلف عليه وأخذه من الجبل والمخللة إلى الهيمان والجوهرة، ولقى من ذلك مشقة عظيمة، ولا يرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها، ولقد حضرت يوم تفرقه الأقمشة على أربابها فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان.

قال: وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها، أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخربوة خشية على العسكر من أرايح القتلى وأثار الوقعة من الوخم، وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند الثقل، وأمر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر، ثم أمرهم بالأصغاء إلى كلامه، وكنت من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا، وقد وطىء أرض الاسلام، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولا بد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا

ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم، و الرأي كل الرأي عندي مناجزته، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين، —يعني— الثاني من الشهور الشمسية، فانفصلت أراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، وتكليفهم أمراً على خلاف ماتحملة القوى لا تؤمن غائلته، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ونستعيد من شد من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة، وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ما قالوه ورآه مصلحة فأقام يصلح مزاجه، ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان.

قال: وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع، وكان رأيهم رحمه الله أن قال: المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم وخيف على البلد منهم، وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعتناهم في يوم واحد، وكان الأمر كما قال والله لقد سمعت منه هذا القول، وشاهدت الفعل كما قال.

وقال العماد: عبأ السلطان ميمته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وهو يمر بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحض على حظ الأبد، ويحث على الجلال والجلد، قال: وكنت في جماعة من أهل الفضل، قد ركبنا في ذلك

اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة، ونحن على بغال بغير أهبة قتال، فرأينا العسكر مولياً، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخلياً فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل، ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصنبرة ونزلنا على شقيه، وكل منا ذاهل عن شبعه وريه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق، وهو غير مفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق، ووصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان وجالوا جولة، ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا، فركبوا أكتافهم، وحكموا في رقابهم أسيافهم، وكان ميسرتنا عسكر سنجار والأسدية فما زالوا ولا زالوا بل وصلوا وصالوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنها مرت الرياح بالجبال، وعاد من كان من الميمنة مثل تقي الدين وقاياز النجمي والحسام بن لاجين، ومن ثبت من أبطال المجاهدين، فلم يفلت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينج من آلافها إلا آحاد، وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداوية الذي كنا أطلقناه، وذكر أنهم في مائة ألف وعشرين ألفاً حين سألناه، ثم ضربنا عنقه - وقال في الفتح: وعشرة آلاف - قال العماد: ومن العجب أن الذين ثبتوا منا لهم لم يبلغوا ألفاً، فردوا مائة ألف وآتاهم الله قوة من بعد ضعف، وكان الواحد يقول: قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين، وتركتهم مصروعين، وكان السلطان من الثابتين في تلك الجولة، والكابطين لأهل الصولة، وقد بقي وحده عند تولي المسلمين، ولاشك أن الله أنزل ملائكته المسؤمين.

حكى بعضهم قال: كنت منهزماً من فارس مدجج قد لز بقربي حصانه، وهز لصلبي سنانه فأيست من البقاء، ثم أبطأت عليّ طعنته فالتفت فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى ومابالقرب أحد، فعرفت أنه نصر إلهي وصنع رباني.

قال: وعاد السلطان إلى مضاربه. وأمر بمواراة الشهداء ومن جملتهم

الفقيه أبو علي بن رواحه، وكان، غزير الفضل قد أكمل الشجاعة والرجاحة، وهو شاعر مفلق وفقه محقق، من ولد عبد الله بن رواحه الصحابي الأنصاري، في الشهادة والشعر معرق، فطرفه الأعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار، وطرفة الأقرب يوم عكا في لقاء الكفار.

قال في البرق: وكان السلطان قد أنعم عليه في حلب بمزرعة، وكتبت توقيعه، وأراد الله تعويقه إذ قرب إلى الآخرة طريقه، وحملت توقيعه إلى السلطان تلك الليلة ليعلم فيه فما علم وراجعت في معناه فسكت وماتكلم، وكان ساعة الوقعة راكباً معنا ثم قال: وقوفنا يطول فمضى إلى خيمته يتودع فلما علم باندفاعنا ساق وراءنا فقطع عمره قبل أن يقطع الوادي، وكان قال لنا لما أصبح: رأيت رجلاً يخلق رأسي في المنام، فقلنا له: هذا من أضغاث الاحلام، فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام.

قلت: وليس هو من أولاد ابن رواحة الصحابي، ذاك لم يعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة، وقد بيناه في التاريخ، والله أعلم.

قال: ومنهم اسماعيل الصوفي الأرموي المكبس، وشيخ من الحاشية في بيت الطشت، وغلام في الخزانة أمين على البيت، وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة، وفجأتهم الشهادة وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة، وذهب قبل الرجعة، وأجمع السلطان وذووا الآراء على أنه يصبح القوم، فتفقدوا العسكر فإذا هو قد غاب لما بان من الأمر وراب، وذلك أن غلمان العسكرية والأوباش ظنوا أن تلك الفورة هزيمة، فنهبوا الاثقال وعدّوها غنيمة، فمن عاد إلى رحله وجده منهوباً مسلوباً، وكان في ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فلقى خطوباً، وأصبحنا وإذا العسكر مفترق والثابت قلق والأمين فرق، والغني معدم، والجريء متندم، فهذا خلف ماذهب من ماله ذاهب، وهذا لمن طلب الطريق بأثقاله طالب، فتفتر ذلك العزم، وتأخر ذلك الحكم، وانتعش الفرنج في تلك المدة

وانتشلوا من تلك الشدة، وجاءتهم في البحر مراكب أخلفت من عدم، وبنت ماهدم، وشكونا نتن رائحة تلك الجيف فحملت على العجل إلى النهر ليشرب من صديدها أهل الكفر، فحمل أكثر من خمسة آلاف جثه حملت إلى النار قبل يوم البعثة، وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة عند خيم الأثقال المضروبة، فسار إليها رابع رمضان، وأمر أهل عكا باغلاق أبوابها، وإحكام أسبائها، فوجد الفرنج بذلك الفرج، وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ماكان في مراكبهم من آلات الحصر، وفي كل يوم يأتينا اليزكية بخبرهم، وبما ظهر من أثرهم، والجد في تعميق الخندق وتتميم محفرهم، فكان من قضاء الله أنا أغفلناهم، وأمهلناهم بل أهملناهم حتى عمقوا الحفور، ووثقوا من ترابها السور، فكانوا يخندقون ويعمقون ويعملون من تراب الحفر حولهم سوراً، فعاد نخيمهم بلداً مستوراً معموراً، فملؤوه بالستائر، ومنعوه من الطير الطائر، وبنوه وأسسوه وستروه وترسوه، ورتبوا عليه رجالاً، ولم يتركوا إليه لواغل مجالاً، وتركوا فيه أبواباً وفروجاً ليظهروا منها إذا أرادوا خروجا، ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال فإنه بعدما أضحك أبكى.

وجاء كتاب من الفاضل إلى العماد جواباً عن كتابه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه: «وعرفت ماجرى على قضيته، فسبحت الله تعالى فإن من عجائب قدرته سلامة سيدنا على ضعف حركته، والأمر كان عظيماً، والمدفوع أعظم، والسلامة كانت غريبة إلا أن نقول ولكن الله سلم، والسلطان أعزه الله إذا سلم فكل الناس قد سلموا، وإذا وجد وقد عدم الناس كلهم فقد وجدوا وماعدموا، وكل جوهر بالإضافة إليه عرض، وهو جوهر بالحقيقة ماعنه من كل جوهر عوض» ومن كتاب له إلى السلطان أؤله: (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) (٩٠)

فصل

في باقي حوادث السنة بمرج عكا وغيره

قال العماد: وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صور مقلعا محتويا على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة ورزمة من الحرير، وجاءت حظوة حلوة، وغنيمة صفوة، وقد كان انكسر نشاطهم، وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويخرجون، ويمسسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك الحركة، فإنها أفضت بهم إلى الهلكة، فاتم ما داموا رابضين، وعلى يد الصبر قابضين، يتعذر الوصول إليهم، والدخول عليهم.

وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف: «والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك هم المؤمنين في تسكين ثأرهم، وتخريب عامرهم، ومادام البحر يمدّهم والبر لا يصدّهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيره أهل اليقين، وما ينقضي عجبنا من تظافر المشركين، وعود المسلمين، فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمناد، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا، وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأي نجدة أنجدوا، وأي أموال غرموها وأنفقوها، وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جرى جاره في مضمار الانجاد، وبارى نظيره في الجد والاجتهاد، واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمّدوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح، وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدتهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا سلك ورفع فيه حجاب عزمه وهتك، يخرج بلد عن يده، وتمتد يد إلى بلده، والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا وغفلوا

وكسلوا ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة، ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام عنان، أو خبا سنا ونبا سنان لما وجد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، من لدين الله يغار، ومن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحمية من الأقباط والأداني، على أنا بحمد الله لنصره راجون، وله باخلاص السرّ وسرّ الخلاص مناجون، والمشركون ياذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون».

قال العماد: وكان السلطان قد كتب إلى مصر يستدعي بأخيه العادل في رجال، فقدم عليه منتصف شوال، وكتب أيضا في طلب الاسطول المصري، فقدمت خمسون قطعة مع حسام الدين لؤلؤ منتصف ذي القعدة، فجاءت فجأة على مراكب الفرنج وبغتها وسحقها وبددتها وكسبتها وسلبتها، وظفر ببطستين كبيرتين بها فيها من أموالهم ورجالهم وغلالهم، قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاته، وشكرت في العدو نكايته، وقد تفرد بغزواته لم يشاركه فيها أحد، وهو الذي ردّ الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجاز، ولم يترك منهم عينا تطرف، ولم يبق لهم دليلا يعرف، وغزواته مشهوره وفتكاته مذكوره، وأمواله مبدولة وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلولة.

قال: ونقل السلطان الى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم، وعددهم وأزوادهم، واستظهر البلد أيضا برجال الأسطول، وكانوا زهاء عشرة آلاف، هذا ورجاله المسلمين يتطرقون إليهم ليلا، ويذيقونهم من القتل والأسر والسرقه والإسار.

قال: ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العدة، وتقوية النجدة بكل مايمكنه من أسباب الباس والشدة، سير من أحمال النفط الأبيض—مع عزة وجوده— ماوجده، ومن التراس والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده، وكتبنا في شكره: «وصل السلاح وتم

للاسلام من قروح الكفر الاقتراح ، فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العدد، ومن العجب أن تبنى العدة وما يفنى العداة، وتنمو على الحصاد كأنها النبات، فالبحر يمدهم والكفر إلى الردى يردهم»

ومن كتاب إلى الديوان: « قد مضت ثلاثة أشهر شهرها التثليث على التوحيد سلاحه، وبسط الكفر جناحيه وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روّعت الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ورامح ونابل، فما أثر ذلك في نقصهم، ولا أرت إلا نار حرصهم، وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التبرير ويأتي عليه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من في ديار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلد ولا جزيرة ولا خطة صغيرة ولا كبيرة، إلا جهزت مراكبها، وأهضت كتائبها، وتحرز ساكنها وبرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونقضت خزائنها، وانقضت معادنها، وحملت ذخائرها، وبذلت أخائرها، ونثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها، وتصلبت للصليب السليب، وتعصبت للمصاب المصيب، ونادوا في نواديهم بأن البلاد هي بلادهم، وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم، وإنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الاسلام وهبت له ذنوبه، وذهبت عنه عيوبه، ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر، فجاؤوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد، وتواصلت منهم الامداد»

قال: « ووصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجزائر، واغتربن لاسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للاشقياء، وانهن لايمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لايتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعنن أن هذه قرية مافوقها قرية، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة».

قال: «وأبقى من عسكرنا من المماليك الأغبياء، والمدابير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى، واتبعوا من غوى، فمنهم من رضي للذة بالذلة، ومنهم من ندم على الزلة، فتحيل في النقلة، فإن يد من لا يرتدلا تمتد، وأمر الهارب إليهم لاتهمه يشتد، وباب الهوى عليه يستد، وماعدن الفرنج على الغرباء إذا أمكنت منها العزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيفين من فرجها فرج». قال: ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر، وأفرة الوفرة، وفي جماعتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلة لكل ما يحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركباتها، ويحملون بحملاتها، ويشبون لوثباتها، وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس، وهن في زي الرجال يبرزون في حومة القتال ويعملن على أرباب الحجى، وهن ربات الحجال، وكل هذا يعتقدن أنه عبادة، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ويجعلنه لهن عادة، فسبحان الذي أضلهن، وعن نهج الهدى أزلهن».

وفي يوم الوقعة طلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهن نسوة، وليس لهن سوى السوابغ كسوة، فما عرفن حتى سلبن وعرين، ومنهن عدّة سبين واشترين، وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز وهن يشدّدن تارة وتارة يرخين، ويحرضن وينخين، ويقلن إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وإنه لا بقاء إلا بالفناء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال والنساء».

قال: وفي آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل إلى الاقطار والأمصار للاستنفار والاستنصار، وبث الكتب وكتب بالبحث، وحث الرسل وراسل بالحث، وسرّح عدنان النجاف إلى سيف الاسلام باليمن، وشرح في الكتاب إليه ماجرى من حوادث الزمن، ووصف له جلية الحال، وطلب منه الإعانة بالمال، وكوتب مظفر الدين قزل أرسلان بهمدان

بيعت مادنا منه عزمه ودان، وحكم على كل ملك بحجة الايمان، وهدى الى محجة الاحسان، ووصل الى السلطان رسول ابن أخيه لأمه ركن الدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، وهو آخر السلاطين السلجوقية يتظلم من عمه قزل أرسلان، ويطلب من السلطان إعانتة، فاعتذر السلطان بما هو عليه من شغل الجهاد مع الكفار، وأرسل رسولا في السفارة بينه وبين عمه جمال الدين أبا الفتح اسماعيل بن محمد ابن عبد، لكونه نسيب العماد، وكتب إلى صاحب إربل وإلى حسن بن قفجاق ونائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته، والارتياح لمصلحته، وأشياعه ومعونته.

قال: وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين سنقر الخلاطي أخص مماليك السلطان وأخلصهم، وقد قدمه على مماليكه، وكانت وفاته ليلة الاثنين والعشرين من رجب.

قال: وفي ثالث عشر شعبان توفي الأمير حسام الدين طمان صاحب الرقة، وهو من المجاهدين المجتهدين، والأتقياء المتجهدين، ولما حضرته الوفاة تأسف من موته على فراشه، وطلب حصانه ليركبه ويتنقل سعيدا شهيدا إلى معاده من معاشه.

قال: وفي تاسع عشر شعبان توفي الأمير عز الدين موسك بن جكر، وهو ابن خال السلطان، وهو من أكابر أقاربه، ومقدمي كتائبه، وكان للقرآن حافظا، وعلى الإحسان محافظا، ولقضاء حقوق الناس ملاحظا، ولم يزل للسلطان في هذه الغزوات ملازما، وعلى قمع جمع الكفر عازما، ولما اشتد مرضه استأذن في الدخول إلى دمشق ودفن بجبل قاسيون.

قال: وفي حادي عشر رمضان توفي بدمشق القاضي شرف الدين بن أبي عصرون، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فبلغ عمره

ثلاثاً وتسعين سنة ونصفاً، وأضر قبل وفاته مدّة عشر سنين، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بدمشق قبالة داره بينهما عرض الطريق، وكان شيخ المذهب، وقد ختمت به الفتيا، وأوحشت غيبته الدين والدنيا.

قال: وفي تاسع ذي الحجة توفي الأمير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري في العسكر بمنزلة الخروبة، وكان صاحب أسد الدين شيركوه، ومضى معه إلى مصر حين ملكها، ثم اختص بالسلطان بعده، وتولى حله وسقده، ودرّت بوساطته وشفاعته للناس أرزاق، ونقل إلى القدس فدفن بظاهره، ولقد كان من الأعيان، ومن أهل الجدلّ في نصره الايمان، فنقله الله إلى الجنان.

قال: وفي هذه السنة أقطع السلطان مملوكه مجاهد الدين إياز ولاية شهرزور وأعمالها، وولى جمال الدين بن المحسن نقابة الاشراف بدمشق.

قال: وفي عاشر جمادى الأولى منها، كان مولد ناصر الدين محمد بن الملك العزيز بمصر، الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في محرم سنة خمس وتسعين، وورد بذلك إلى السلطان جدّه كتاب كريم فاضلي من مصر نسخته: «المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رشاده وارشاده، وزاد سعده واسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده واعداده، واشتدّ باعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده، حتى يقال هذا آدم المملوك وهذه أولاده، وينهي ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولداً مباركاً عليا، ذكراً سوياً، براً ذكياً، تقياً نقياً، من ذرية كريمة (بعضها من بعض) (٩٢)، ومن نبت شريف كادت ولاته تكون ولاية في السماء، وماليكه تكون مملوكاً في الأرض، وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد أولى العدد، وبه وبآله يعز الله أهل الجمعة وينزل أهل الأحد» ثم ذكر باقي الكتاب

فصل

في ورود خبر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد: ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتب من ولده الظاهر، يخبر فيها أنه قد صحح إن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا ألف، وقيل مائتان وستون ألفاً، يريد البلاد الإسلامية، فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار، وصاحب الموصل، وصاحب إربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي رمضان، ويسر الله تعالى الوصول في الجماعة، وإبلاغ الرسالة إليهم فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم، وسير صاحب الموصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره، ووعد الديوان بكل جميل، وعدت إليه خامس ربيع الأول سنة ست وثمانين، وسبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم وتأهبهم للمسير، فسر بذلك.

وقال العماد في كتاب الفتح: ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قصد العبور إلى بلاد الإسلام، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام، وفيهم ستون ألف فارس مدّرع، ومعهم ملوك وكنود، وكل شيطان لربه كنود، وكتب صاحب قلعة الروم مقدّم الأرمن وهو في قلعته على الفرات، وبين أهل الذمة في المأمن بيدي تنصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحتراقا، ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عشرة، وأبرق في كتابه وأرعد، وأبدع في خطابه وأبعد، ولاشك أنه إلى جنسه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا النبأ، قيل إنه عظيم، وورد هذا الخبر، وخيل إنه أليم، كاد الناس يضطربون على أنهم يصدّقون ويكذبون، ومن طرف

كل حبل من الرأى يجذبون، وقلنا: إن وضع هذا الخطر، وصح هذا الخبر، فالمسلمون يقومون لنا ولايقعدون ، ويغضبون لله ولا يرضون أنهم لايعضدون، على أن الله ناصرنا، ومؤازرنا ومظاهرنا، وحققنا باظهار القوة لمن استوحش التأنيس ، وبثنا بالارسال إلى بلاد الروم عيونا وجواسيس، وندبنا رسل الاستنصار، وبعثنا كتب الاستنصار الى جميع الأمصار والأقطار، وقلنا ماهذه المرّة الى مرّة، لايسغها إلا كل مرّ أيّ، وماهذه الكرة مثل كل كرة، ولايحضرنا إلا كل كميّش كميّ.

قال: وعوّّل السلطان على ارسال القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف ابن رافع بن تميم، ليكون كتابه إلى الديوان العزيز مع رسول كريم، وقال له: ماأحتاج أوصي، وأنت توفي القول وتستقصي، وجعل له إلى كل طرف في طريقه رسالة، وأودعه إليه مقالة، فسار ووصل إلى حلب والقاضي ضياءالدين بن الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عاد، وذكر أنه قد بلغ المراد، فما هذا الرسول الرائح، ووصل وهو مغتاض وتغير عليّ، ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين إليّ، ثم اجتمع بالسلطان وندّمه على ماقدّمه، وأعلمه بما عمله وعلمه، وقال له: الشغل قد فرغ، والقصد قد بلغ، وقرّر مع السلطان أمراً ، وعاد على النجب إلى بغداد، وصادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد، وقيل: جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره، وندبه فيما نتخيره.

وقال في كتاب البرق: وصل الخبر بخروج ملك الألمان من بلاده في مائتي ألف دارع، وفي راجل في ديبب رجل الدبا، في عدد رمل اللوا، وأقام بمحشرهم القيامة، واستثارهم لثار كنيستهم بالقدس قمامة، وساروا في شهور حتى وصلوا قسطنطينية، وكان ملك الروم يكتب إلينا بأخبارهم ونبأ خروجهم من ديارهم، ويقول: أنا لا أمكنهم من العبور، فلما جاؤوا لم يقدر على منعهم، فصدّ عنهم الأزواد، وحرّمهم الإسعاد، وعبروا الخليج وقد كثرت أمدادهم، وقلت أزوادهم، ولما وصلوا إلى

حدود بلاد الاسلام، وسلكوا في الأودية والأجام والوهود والآكام،
تسلمهم تركمان الأوج، وتراكم الثلوج وشتا الكلاب في كلب الشتاء،
واحتاجوا إلى أكل الدواب، واحراق عددهم لإعواز الأحطاب، وعدموا
العلف، وماوجدوا الخلف، ومناهل الزلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون،
ومن البلاء ناهلون، لايقطعون في يومين فرسخا، وقد أذهب الله عنهم
البركة، وصعب عليهم الحركة، وخرج الامر عن حسابهم، وهم كل يوم في
نقص أنفسهم ودوابهم، وكانوا يدفنون من اعلاقهم النفيسة، وعددهم
الكريمة الرئيسة، مايعجزون عن نقله، ولايخفون بثقله، فاتخذوا لأسرارها
من اضلاع تلك الشعاب، وصدور تلك الوهاد والهضاب ضماير لاتبوح
بها أبداً، ولاتطلع على مكنونها ومدفونها أحدا، هذا وبحرهم عباب
الموج، وهباب الفوج، فلما خلصوا بعد أشهر كأنهم زخروا بموج سبعة
أبحر، هذا وقدنقص شطرهم، وانقطع ظهرهم، لكنهم عرضوا في الستين
ألف مدّرع مدجج مقنع، ذلك وقد باد أكثر راجلهم، وترجل معظم
أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

قلت: ومن قصيدة للحكيم أبي الفضل الجلياني:
يامنقذالقدس من أيدي جبابرة
قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فاكذبوا وكذبهم في وصف ربهم
وصدّق الوعد ما مونا تحوّله
أما رأيت ابن أيوب استقل بما
يعيي الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد حاروا الفتكته
فاستنفروا كل مرهوب تغلغله
لما سبى القدس قالوا: كيف نتركها
والرب في حفر منها تثلثه
فكم مليك لهم شق البحار سرى
لينصروا القبر والأقذار تحذله

وكم ترحل منهم فيلق بفلا
إلى الخوامع ألقاه ترحله
استصرخوا الأهل والعدوى تمزقهم
واستكثروا المال والهيجاتنقله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه
كلما لج صدم اجل مقتله
سيف امام فلسطين يرى امما
خلف البحار لقد أمهاه صيقله
كم أعدواوكم قد فل جمعهم
من غير ضرب ولا طعن يزيله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر في
جيش العدو فيسببهم تخيله

ثم دخلت سنة ست وثمانين

قال العماد رحمه الله: والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة في خيامه المضروبة على الحالة المحبوبة، وعنده العادل والأفضل والمظفر، وعكا محصورة، وانقضت هذه السنة، وهو على مرابطة المحاصرين لعكا، واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر الغربية إلى بلادها البعيدة والقريبة لهجوم الشتاء وتوالي الأنداء والأنواء، وحالت الوحول عن الركوب والنزول، وكانت نوب اليزك مترتبة، والأحوال متهدبة، وربما ركب السلطان يوماً للقنص بالبزاة، ثم يعود لانتهاز فرصة الغزاة، ثم وقعت وقعة الرمل، وذلك أنه ركب يوماً في صفر فتصيد، وطاب له قرب القنص فأبعد، واليزكية على الرمل وساحل البحر، فخرج الفرنج في وقت العصر في عدد لا يدخل في الحصر، وتسامع أصحابنا بهم، فزحفوا إليهم، وحكموا عليهم، وطردهوا عليهم إلى خيامهم، وأخذوا من خلفهم وأمامهم، ولهم في كل دفعة من العدو قلائع، وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع، حتى فني الشباب وبقي الانتشاب، وشاع نداء الاصحاب باستدعاء الشباب، والفرنج لا يعجزهم إلا الرما ولا يهتكهم إلا الاصها، فلما أنسوا بخلوا الجعاب، تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب، وحلوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبت بهم يد القهر، فتبث من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، واستشهد جماعة من الشجعان، وذلك أنهم لما ردوا والفرنج قلعوا فرسانا، وصرعوا أقرانا، فنزلوا بعد فرسهم بسلب لبسهم، فمرت بهم الحملة في الأوبه، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل وافترق الجمعان، وكثر التأسف على من فقد، ومنهم الحاجب أيد غمش المجدي.

قال: ومن عجائب هذه الوقعة أن مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر عشر به جواده، فقبض من أسره على شعره ليجذبه وسل آخر سيفه

ليضربه، فضرب يد قابض شعره فسيبه، واشتدّ سرا سنقر يعدو ، وهم خلفه فلم يدركوه، وعاد السلطان من الصيد وقد انفصل الأمر.

قال: وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الأوّل تسلّم شقيف أرنون بالأمان، وكان الحصار قد استمر عليه حتى فني زاده، وصاحبه أرناط في الأسر، فسلمه بخلاصه وصار إلى صور.

قال: واغتتم السلطان هيجان البحر، وحضور مراكب الاسطول من مصر، فما زال يقوّي عكا بتسيير الغلات والقوّات إليها في المراكب، وملاها بالذخائر والأسلحة والكمّاء، فلما سكن البحر عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، ودبت عقاربها وأفاعيها، وشدّت مراكبنا في موانئها، وانقطع خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد، فانتدبت العوّام بالسباحة، وحملهم على ذلك من السلطان السباحة، حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كتباً وطيورا ويعودون بكتب وطيور، ونكتب إليهم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها، وكان في العسكر من اتخذ حماما يطوف على خيمته، وينزل في منزلته، وعمل لها برجاً من خشب، وهوادي من قصب، ويدرجها على الطيران من البعد، وكنا نقول: ما لهذا الولع، بما لا ينفع حتى جاءت نوبة عكا فنفعت، وشفّت الغليل ونقعت، وأتت بالكتب سارحة شارحة، وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها لكثرة الارسال، ولقد عطب عوّامون، فما ارتدع الباقون، ومنهم من سلم مراراً من القوم فاجترأ وأنس بالعموم.

فصل

في قدوم الملوك وحريق الأبراج

قال العماد: ولما انقضى الشتاء، وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الاسلامية من البلاد، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم بن المقدم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتركمان، فرحل السلطان وتقدم وعزم على طلب العدو وصمم، ونزل على تل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول، ورتب عسكره فكان تقي الدين في آخر اليمين، والعاذل في آخر اليسرة، والأفضل في أول يمينة القلب، وأخوه الظافر في أول اليسرة على الجنب، ثم وصل الظاهر في عساكر حلب، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، ووصل معه حملان من النفط الطيار، وحملان من القنا الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار، يقترض على الديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزرايين النفاطين المتقين صناعة الاحراق بالنار، فاعتد السلطان بكل ما أحضره، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى ردّ التوقيع وقال كل مامعي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان، وأركب الرسول معه مراراً وأراه مبارك النزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بما يشاهد، ويبين له المجتهد المجاهد، وأقام طويلاً ثم استأذن في العود فرجع.

وقال القاضي ابن شداد: قبل السلطان جميع ما وصل مع الرسول، واستغنى من الرقعة والثقل بها. قال: وفي ذلك اليوم بلغ السلطان أن

الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالا شديدا إلى الليل، وخاف أن يهجم العدو البلد، فانتقل إلى تل الحجل في خامس عشر ربيع الأوّل للقرب، قال: وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدو بعض الخندق، وقد قوي عزم العدو على منازلة البلد ومضايقته، فجدد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول، وفي سحر ليلة سابع عشري ربيع الأوّل وصل ولده الظاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين، وكان السلطان رحمه الله ما يقدم عليه عسكر إلا ويعرضهم ويسير بهم إلى العدو، وينزل بهم في خيمته ويمدّ لهم الطعام وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرمين، قال: وكان العدو قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار، وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر عني ما قيل ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن شرحه، وأيس الناس من البلد بالكلية، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه، وكان قد فرغ عملها، ولم يبق إلا جرّها قريب السور، وكان السلطان رحمه الله قد أعمل فكره في إحراقها واهلاكها، وجمع الصناع من الزرايين والنفاطيين، وباحثهم في الاجتهاد في احراقها، ووعدهم عليه بالاموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضائق حيلهم عن ذلك، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي فذكر أن له صناعة في احراقها، وأنه إن أمكن من الدخول إلى عكا وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها فحصل له جميع ما طلبه ودخل الى عكا وطبخ تلك الأدوية مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جرة نار، ثم ضرب البرج الواحد يوم وصول الملك الظاهر بقدر فاشتعل

من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب، فبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثاني، والثالث بالتالث فاحترقا كالأول، وركب السلطان والعساكر وسار إليهم وانتظر ان يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله ﷺ: « من فتح له باب خير فلينتهزه»، فلم يظهر العدو من خيامهم، وحال بين الطائفتين الليل، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم، والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، وهو ابن أخي نور الدين رحمه الله وصهره وزوج ابنته، فلقية السلطان بالإحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه، وسار به حتى أوقفه على العدو، وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له طعاما لاثقا بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدم له من التحف، واللطائف ما لا يقدر عليه غيره، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر، وفي سابع جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، فلقية السلطان وأنزله إلى جانب عمه عماد الدين. وفي تاسع جمادى الأولى وصل ابن صاحب الموصل، وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، نائبا عن أبيه، ففرح السلطان به فرحا شديدا وتلقاه من بعيد هو وأهله، واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة، وكرمه مكارمة عظيمة، وقدم له تحفا حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين علي، فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعنى في الميسرة.

وذكر العماد قدوم هؤلاء الملوك بمعنى ما تقدّم قال: وكان الفرنج مذ
نزلوا على عكا صمموا على الإقامة والحصر، فشرعوا في بناء الأبراج
العظام العالية، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافية، واقطاع الحديد،
وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مواضع من أقطار البلد، وكل برج لا بد
له في أركانه من أربع اسطوانات عاليات غلاظ جافيات، طول كل
واحدة خمسون ذراعاً ليشرف على ارتفاع سور البلد، وبسطوها على دوائر
العجل، ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ،
وكل يوم يقربونها، ولو ذراعاً على حسب التيسير في تسييرها، وسقوها
بالخل والخمر، وكشفوا من جوانبها الثلاثة سور البلد وشرعوا في طم
الخندق، وجاء عوام من عكا فأخبر السلطان فركب بالعسكر ولازمهم
من الجمعة إلى الجمعة يقاتلهم صباح مساء ليشغلهم، فافترقوا قسمين
فريق للقتال وفريق آخر مع الأبراج، فأشفى البلد وبقي له رمق
ضعيف، ورميت الأبراج بكل قارورة نبط فما أثرت، ولم نشعر يوم
السبت الثامن والعشرين من ربيع الأول بالأبراج إلا وقد اشتعلت،
والتهبت ووقعت، وكانت آية من قدرة الله ظهرت، وذلك أنه كان بعكا
شاب من أهل دمشق يعرف بعلي ابن عريف النحاسن، وكان أبداً يجمع
آلات الزرايين مولعاً، ولتحصيل عقايرها متتبعا، وكل من عرفه عدله
وانكر عمله، وكان قد ألف منها مقادير وقدورا، وملاً بالغيظ من أهل
تلك الصناعة صدورا، ولم يكن النبط من صناعته، ولكن الله وفقه
لسعادته، فلما كان يوم حريقها جاء إلى الأمير قراقوش وهو مغتاض
واخلاقه فظاظ غلاظ، وقال: أتأذن لي في تصويب المنجنيق لأحرق
البرج والله ولي التوفيق، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وقال صناع: هذا الشغل
قد خاروا وחרاروا، وبعد ما انجدوا أغاروا، فقال الناس: دعه وشأنه،
وما يدريك أن الله وفقه وأعانه، فرمى ابن العريف إلى البرج الأول قدور
نبط خالية من نار حتى عرف انه سقاه ورواه، ثم رماه بقدر محرقه،
وأردفها بأخرى مزهقة، فتسلطت النار على طبقاتها، فأضرم على أهل

السعير سعيرا) وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٩٣) ثم أحرق الثاني والثالث، فاجتمع عليه الأصحاب يفدونه ومن الأولياء يعدونه، وحملوه بعد ذلك إلى السلطان فلم يقبل عطاء، وقال: عملته لله فما أريد به من سواه جزاء، وقيل احترق في البرج الأوّل سبعون فارسا بعدتها فحبطت أعماهم وخابت أمالمهم، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكائنها، ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت، وكشفوا عن الستائر التي تهتك، فأخذوا ما وجدوا، وحصلوا ما نشدوا.

قال: وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شوانى الاسطول والاسراع به في الوصول، فوصل الخبر بوصول يوم الخميس ثامن الشهر، فاستظهر به الأسطول الأوّل الذي بالثغر، فركب السلطان بجميع كتائبه، وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتغل الفرنج عنا بإدهمهم في البحر، فجدّوا في الامر، وجهزوا اسطولا بعدد الرجال وعدد القتال، وخرجوا لتلقي الأسطول الواصل، وقابلوا الحق بالباطل، وجاءت شوانى المسلمين فنطحت وطحنت، وأخذت مركبا للعدو برجاله، وأخذوا لنا قطعة، وما زالت الحرب قرعة وقرعة، وصرعة وصرعة، حتى دخل الليل فتحاجز الفريقان، وتفرّق الاسطولان، وكانت المقتلة في الكفر شديدة والسطوة مبيدة.

وقال القاضي ابن شداد: لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت في البحر قلوب كثيرة، وكان رحمه الله في نظرة الاسطول من مصر فإنه كان قد أمر بتعميره ووصله، فعلم أنه هو، فركب والناس في خدمته وتعباً تعبى القتال، وقصده مضايقة العدو ليشغله عن قصد الأسطول، ولما علم العدو بالاسطول استعدّ له وعمر اسطوله لقتاله ومنعه من دخول عكا، ولما خرج اسطول العدو واشتد

السلطان في قتالهم من خارج، وسار الناس على جانب البحر تقوية للأسطول وایناسا له ولرجالہ التقى الاسطولان في البحر، والعسكران في البر واضطربت نار الحرب واستعرت، وباع كل فريق روحه براحتہ الأخروية، وجرى قتال شديد أقشع عن نصرۃ الاسطول الاسلامي، وأخذ منه شينى وقتل من به، ونهب جميع ما فيه، وظفر من العدو بمركب أيضا، كان واصلا من قسطنطينية، ودخل الاسطول المنصور إلى عكا، وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر، وطابت قلوب أهل البلد بذلك، وانشرحت صدورهم، فان الضائقة كانت قد أخذت منهم، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل، وعاد كل فريق إلى خيمه، وقد قتل من عدو الله وجرح في ذلك اليوم خلق عظيم، فإنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع، فإن أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلوهم عن الأسطول أيضا، والاسطولان مقابلان، والعسكر من البر يقاتلهم، وكان النصر بحمد الله للمسلمين.

قال العماد: وقتلنا منهم مدّة مقامنا على عكا سنتين أكثر من ستين ألف، ورزأناهم بكل حتف، وكلما أبادوا في البر، زادوا من البحر، وكم جسروا وخسروا، وقتلوا وأسروا، وهزموا وكسروا، وخلفهم خلف، ويقوم مقام مائتهم ألف، وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم، وقطعنا أرزاقهم ووصلنا آجالهم.

فصل

فيما كان من أمر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد: تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان، وأنه انتهض للقائه جمع عظيم من التركمان، وقصدوا منعه من عبور النهر، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه، وعدم مقدّم لهم يجمع كلمتهم، وكان قليج أرسلان يظهر اشفاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر من الفساد ما كان أضمره ووافقه وأعطاه رهائن معه على أنه ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون، وأنفذ معه أدلة يدلون به وعراهم في الطريق جوع عظيم وأعوزهم الزاد وقل بهم الظهر حتى أنهم ألقوا بعض أقمشتهم، ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات وسلاح عجزوا عن حملها، وجعلوها بيدرا واحداً وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها أحد، وأنها بقيت بعد ذلك رايبة من حديد، وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طرسوس، فأقاموا على نهر ليعبروه وأن ملكهم الملعون عنّ له أن يسبح فيه، وكان ماء شديد البرد، وكان ذلك عقيب ماناله من التعب، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتدّ به إلى أن قتله، ولما رأى ماحل به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته، ولما مات أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل، وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القدس الشريف ويدفنوه فيه، وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه، فإن ولده الأكبر كان خلفه في بلاده، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه، واستقر قدم ولده الحاضر في تقدّمه في العسكر، ولما أحس لافون بما جرى عليهم من الخلل وماحل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم، مارأى أن يلقي نفسه بينهم فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر، وهم فرنج وهو أرمني، فاعتصم عنهم في بعض قلاعه المنيعة، ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكاغيكوس، وهو مقدّم

الأرمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات، ومعنى هذا الاسم الخليفة، ونسخة الكتاب: «كتاب الداعي المخلص الكاغيوس مما أطلع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر، جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره، وذلك أنه أول ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر غصبا، ثم دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً وخمسين قنطاراً فضة، وثياب أطلس مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب، وعدى بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، وردّ الرهائن وبقي ثلاثة أيام سائراً وتركمان الأوج يلقونه بالاغنام والابقار الخيل والبضائع، فتداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركمان وبينهم، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به ملك الألمان وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيماً من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل، وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده ومالقيه في طريقه، وأنه لا بدّ يجتاز بهذه الديار اختياراً أوكرها، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك خاتمه وصحبته ماسأل، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه، وكانت الوصية معهم أن يجزّفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعرفوه الاحوال أبى الانحراف، ثم كثر عليه

العساكر والجموع ونزل على شط بعض الأنهر وأكل خبزاً ونام ساعة وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج وكان أمر الله أنه تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات، وأما لافون فكان سائراً يتلقى الملك، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتوى هناك، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأكدت قواعده، وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال: إن أبي كان شيخاً كبيراً وإنما قصد هذه الديار لأجل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق مع من أطاعني، والا كنت بدأت بقصد دياره واستعطف لافون، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة، وفي الجملة هم في عدد كثير، ولقد عرض عسكره فكان في اثنين وأربعين ألفاً مجفجفاً وأما الرجال فلا يحصى عددهم، هم أجناس متفاوتة، وخلق غريبة، وهم على قصد عظيم، وجد في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جنابة ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة، ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم عليه، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه، وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلسوغ لذة هجره وعزروه، وكل ذلك كان حزناً على بيت المقدس، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرّموها على أنفسهم ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك، وهم على الذل والشقاء، والتعب على حال عظيم».

وقال العماد: لما قاربوا بلاد عز الدين قليج أرسلان نهض إليهم ابنه قطب الدين ملك شاه، فوقع بينهم الحرب، ثم اندفع عنهم إلى مدينة قونية، فساقوا وراءه ودخلوها وحرقوا أسواقها ونزلوها، فنفذوا إلى

السلطان قليج أرسلان: إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنما ثرنا لشار بيت المقدس، ونفذوا اليه هدايا وطلبوا الهدنة فهادنهم، فتقووا من تلك البلاد بما أرادوا من العدد والأزواد، وأنفذ قليج الدين أرسلان وابنه يعتذران الى السلطان من تمكينهم ثم العبور، وانهم غلبوا على ذلك، ثم ان الالمانية طلبوا من قليج أرسلان إنفاذ جماعة من الأمراء معهم يمنعونهم من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بلاد الأرمن، فنفذ معهم خمسة وعشرين، ووافق ذلك غرض قطب الدين، فإنه كان كارها لجماعة من المقدمين فتقدم إليهم بأن يكونوا في صحبة ملك الألمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الغرر، وورطهم في الضرر، فإنهم ماقدروا في الطريق على دفع كل سارق، وقد تبعهم اللصوص حتى وصلوا إلى بلاد الأرمن ومقدمهم لافون بن أصطفان بن لاون، فأخذوا أولئك الرهائن وقيدوهم وجعلوهم في الاسر وجرّدهم، فمنهم من خلص بعد حين بهال جزيل، ومنهم من بقي مأسورا حتى أتاه اليقين، ووصل مقدم الأرمن إلى خدمته، ودخل في طاعته، وهداهم لمقصده، وقام لهم بالضيافات والعلوفات، وذلك في طرسوس، فتمكنوا بها ليرجوا النفوس، فعن لملك الالمان أن يسبح في النهر لإماطة مابه من الوضر، فعرض له مرض سلك به في سقر، وقيل: لما عبرت جموعه النهر ازدحموا والتطم الموج بهم واقتحموا، وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده، ويتبعه من بعده، فنزل على مخاضة ذات مخافة، لا يخلو من هجمها من آفة، فجرى إليها، واجترأ عليها، فجذبتة سورة الماء إلى شجرة شجت رأسه ومجت أنفاسه، وأخرجوه ونفسه على الخروج، وعمره على الدروج، فتسلم مالك ملك الألمان بآله وأحاله إلى جهنم، وجلس ابنه مكانه، واتبع شأنه، واستتبع رجاله وفرسانه، وقيل عرض عسكريه في نيف وأربعين ألف كمي، وانقطع عنه ابن لاون واختلف عليه أصحاب أبيه ميلا منهم إلى أخيه، وساروا على سمت انطاكية في فرق ثلاث كأنهم من المرض قد نبشوا من أجداث، وأكثرهم حملة عصي وركاب حمير، وكل بالأرض التي يسلكها

غير خبير، فتبرم بهم صاحب أنطاكية، وثقلت وطأتهم المفاجئة، وحسن لهم طريق بلاد حلب فلم يروا ذلك الصوب من أرب، وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل إليها ماله وخزائنه وأثقاله، فأخلاها له وسلمها إليه طمعا في ماله، وأموال رجاله، وكان على ماحدثه فإنه لم يعد إليها، واستولى الابرنس بأنطاكية عليها، وجاءت فرقة منهم ليلا إلى حصن بغراس، وظنوا أنه في أيدي أجناسهم الأنجاس، ففتح والي القلعة الباب، وأخرج الاصحاب، وتسلم تلك الأموال بأحمالها والصناديق بأقفالها، وأسر منهم وقتل كثير، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندها إلى طرقهم، وفرقوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغياض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة، ولا يرى من رفقاتهم إغائة، فهانت الألمانية بعد تلك المهابة في الأنفس، وباعوهم في الاسواق بالثمن الأبخس، ولما تكامل وصول السالمين إلى أنطاكية، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلة واللاذقية، فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا، فما وصلوا إلى طرابلس إلا في خف ولم ينسف ممن جاء مع الملك غير ألف، وجاؤوا إلى النازلين على عكا فغرقوا في لجهم، وخذوا في وهجهم، ثم هلك على عكا بعد انقضاء مدة، واقتضاء شدة، بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين.

وقال في الفتح: وجبن الملك عن السير على الطريق لما لقيت جموعه في طرقاتهم من التفريق، فركب البحر في عدد يسير لايزيد على الألف، برعب قلب وقصور يد ورغم، أنف، واختلط مع الفرنج على عكا فسقط وسخط حكمه، وهلك بعد قليل، ولم يحظ بنقع غليل،

وقال القاضي ابن شداد: مرض ولد ملك الألمان الذي قام مقامه مرضاً عظيماً، وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون داوياً، وجهز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدمها كند عظيم عندهم، وإن عسكر بغراس مع

قلته أخذ منهم مائتي رجل نهباً وقهراً، وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد، وقلة الخيل والظهر، والعدد والآلات، ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الإسلامية أنفذوا إليهم عسكرياً يكشفون أخبارهم، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم، وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس، ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة، قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لأعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رحاً إلا النادر، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أقمنا بمرج وخم أياماً وقلت أزوادنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها، ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية، وطمع لافون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه، ولم تنزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض.

قال: ولما تحقق السلطان وصول ملك الألمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الإسلامية، جمع عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدو المقابل بباقي العسكر المنصور، فكان أول من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين ابن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما، ثم مجد الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب، وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له، وكذا بدر الدين شحنة دمشق، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لايالة الطريق، وكشف الأخبار، وحفظ ما يليه من البلاد، وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدو المجتاز، ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها، فأمر رحمة الله عليه الملك العادل فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن

زين الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم إلا أن المرض كان سلبيا بحمد الله تعالى، وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم، وكان مقترنا بموتان عظيم، وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطاً للعدو.

قال العماد: وتقدم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت وفي بعض الكتب السلطانية: «قد عرفنا خبر العدو المشؤوم الواصل من جانب الروم، وهذا أوان تحرك ذوي الحميه، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، وانهم في كثرة مستنون في طريق العثرة، والسييل اذا وصل إلى الجبل الراسي وقف، والدليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون وحاشى أن تكونوا للاسلام مسلمين، وأين المقدمون في الدين، ومعاذ الله أن لا يكونوا في نصرته على الموت مقدمين، ولولا التقييد بهذا العدو الرابض لأطلقت أعنة النهضة إلى العدو الناهض، ولا بد من لقائه قبل تلفق الجمعين واراة الملاعين وجوه حتفهم ملء العين».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد: «ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه، ويخرج منه للمسلمين ماهو أمر من أجاجه، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة، فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفا عوضه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، والثمرة أنمى من الجذاذ، وهذا العدو المقابل قاتله الله قد زرّ عليه من الخنادق دروعا متينة، وأستجن من الجنانات بحصون حصينة، فصار محصوراً ومتمنعا حاسرا ومتدرعا، مواصلا ومنقطعا، وعددهم الجم قد كثر القتل، ورفاههم الغلب قد قطعت النصل، لشدة ماقطعها النصل، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في

استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لافي شجاعتهم، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية في الصحبة البدرية، «اللهم إن تهلك هذه العصابة» ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة، وقد حرّم باباهم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح، واستخرج منهم كل مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحداد وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة، فيأعصبة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا فإننا والمسلمون عندك ودائع، ومماثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لو وقف بالعتبات ضارعا، وقبل ترابها خاشعا، وناجاها بالقول صادعا، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طيبب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن من عدو الاسلام أن يقول قولاً آخر لسافر، ولولا أن في التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح لقال ما يبكي العيون، وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب: ربّ إني لأملك إلا نفسي، وهاهي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة، وولدي وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم، وهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروهم، ونقف عند هذا الحد والله الأمر من قبل ومن بعد».

فصل

في الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة

قال القاضي ابن شداد: علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سار كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو فأجمعوا رأيهم، وانفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة، فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم العادل، فلما بصر بهم صاح صائحهم، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها، وركب السلطان ونادى مناديه: يا لاسلام، وكان رحمه الله أول راكب، ولقد ركب من خيمته، وحوله نفر يسير ثم خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة لولدها والثاكلة لواحدتها، ثم ضرب الكوس فأجابته كاسات الأمراء من أماكنها، وركب الناس وسارع الفرنج في قصد الميمنة حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر، ودخلوا في وجاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا إلى خيمة الخاص وأخذوا من سرا بخاناته شيئاً، وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قاياز النجمي، وعز الدين جرديك النوري ومن يجرى مجراه، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في المخيم ويشغلوا بالنهب، وكان كما ظن فانه عاثت أيديهم في الخيام، والاقمشة والفواكه والطعام، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى خيامهم هارين، وعلى أعقابهم ناكسين، وسيف الله يقتل فيهم، وصاح صائح السلطان في الناس: يا أبطال الموحدين هذا عدو الله قد أمكن الله منه، وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه، فبادر إلى اجابة دعوته أهل حلقته

وخاصته، ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي، وتتابع العساكر وتجاوبت الأبطال، وقامت سوق الحرب فلم يكن إلا ساعة حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية^(٩٤) وامتدوا مطروحين من خيام العادل إلى خيامهم، أولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدو صرعى على التلول والوهاد، وكان مقدار ما امتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخاً، وربما زاد على ذلك، ولم ينبج من القوم إلا النادر.

قال: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي، واجتهدت أن أعدهم، فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم، وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فإن السلطان كان قد أمر الناس أن لا يستبقوا أحداً، هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الأمر، وقضي القضاء على العدو لبعده المسافتين، وكانت هذه الواقعة فيما بين الظهر والعصر، فإن العدو ظهر في قائم الظهرية، وانفصلت الحرب بعد العصر، وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم إلى مخيمهم على ما قيل، ثم إن السلطان أمر الناس بالتراجع، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، ولما أحس جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الواقعة فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور خرجوا إلى مخيم العدو من البلد، وجرى بينهم مقتلة عظيمة، وكانت النصرة والحمد لله للمسلمين، بحيث هجموا خيام العدو ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام، ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس في عدد القتلى منهم، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون: سبعة آلاف ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها في خيم العادل وآخرها في خيم العدو، ولقد لقيت انسانا عاقلاً جندياً يسعى بين

صفوف القتلى، ويعددهم فقلت له: كم عددت؟ فقال: إلى هنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا، وكان قد عدّ صفين، وهو في الصف الثالث لكن مامضى من الصفوف أكثر عدداً من الباقي.

قال: وجاء من الغد نجاب له عن حلب خمسة أيام بكتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدو الشمالي خرجوا للنهب بأطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الحلبي إليهم وأخذ عليهم الطرق، فلم ينج منهم أحد إلا من شاء الله.

قال: وجاء في ليلة ذلك اليوم من اليك من ذكر أن العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع منهم حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم، ولم يزل العدو من حينئذ مكسور الجناح منهاض الجانب حتى وصلهم كند يقال له كندهري، وسيأتي ذكره.

وقال العماد: لما شاع عند الفرنج خبر وصول الأمانية قالوا: إذا وصل ملكهم، ونكى في المسلمين انكسر ناموسنا وتطأطأت عنده رؤوسنا، فذكر الواقعة بمعنى ماتقدم إلى أن قال: ووصل السلطان وشاهد من مساء الفرنج ماسره، وعرف لطف الله وبره ونصره، وعاین هناك مصارع الأعداء، ومشارع البلاء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الأرض، وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض، وكل صف يزيد على ألف قتيل، وشاع القتل في الفرنج في كل قبيل، وكانت هذه النوبة بلا نائبة، وتلك الغزوة بلا شائبة، وقتل منهم زهاء عشرة آلاف، ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر، واغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسرة.

قال: ولما عرفت بالواقعة، والنصرة الجامعة، صدرت ثلاثين أو أربعين كتابا بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات، وقلت: إذا نزل السلطان

وجد الكتب حاضرة، ورأى البشارة شائرة، وركبت أنا والقاضي بهاء الدين ابن شداد لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى وأجساد، فما أعجل ماسلبوا وعزّوا، وفروا وفروا، وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم، ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة، ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام؛ فعدنا إلى الخيام، واطلنا الوقوف على تلك الطلول الدارسة، واستبشرت الوجوه بتلك الأوجه العابسه، وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل، لاحزر تكثير بل حزر تقليل، وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا أقل من ألف، فقتلوا أضعافا مضاعفة وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعدة، وحكي من نوادر هذه الواقعة أن فرنجيا عقر فجشا للصرعة فعثر به راكب برذون فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده، فنزل بحده مستننا في جده وقاتل ذلك الفرنجي، وروى من دمه الهندي، وحل من وسطه ثمانين ديناراً فانقلب ربحاً ماعده خساراً، وامتألت الأيدي بالأسلاب والأكساب، وحصل من العدد ما لم يكن في الحساب، وبيعت الزرديات ذوات الأثمان بالرخص.

قال: وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة، وسألوا في الصلح وأذن لهم السلطان في الخروج للنظر إلى أولئك الصرعى بتلك المروج، وهي قد تورمت، وانتنت، وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت، وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت، فساءهم ماسرنا، ونفرهم ما أقرتنا.

فصل

قال العماد: وكان الرأي بعد هذه النصرة أن نرد عليهم الكرة مرة بعد مرة إلى أن يهلكوا حسرة، ويبيدوا فلا يبقى لهم جمره، فاشتغل السلطان بما جاء من المكاتبات بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدة من البحر، ومدد أضعاف مانقص منهم من العدد والعدد، فأضحوا كأن لم ينكبوا، وثبتوا مكانهم ولم يشبوا، ووصل اليهم المعروف بالكندھري، ففرق الأموال واستخدم الرجال، وأنفق في عشرة آلاف رجل، وأظهر أنه يخرج إلى لقاء عسكر الاسلام، فتحوّل السلطان الى منزلة الخروبة ليوسع عليهم الدائرة، ونصب الكند على عكا منجنيقات كثيرة، فأحرقها المسلمون، وقتل منهم من الفوارس سبعون، وأسر عدّة معروفون، ثم نصب منجنيين فأحرقا أول شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفا وخمسمائة دينار، ومن جملة من وقع في الأسر فارس كبير فما أهله حين أخذه، حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال ولم يعرفوا بالحال فأخرجوه إليهم قتيلا فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا، وباتوا يندبون نوحاً، ويذيعون سر تقدّمه فيهم بوحاً، وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بنفوسهم الأرض، وحشوا على رؤوسهم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة، وكنتموا أمره ولم يظهر أحداً على سره، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون، هذا والكتب متواصلة من عكا إلينا ومنا إليها على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سارقة من العدو.

قال العماد: ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعاء، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية، والخطبة فيه، وأنه مستمر على المودّة، راغب في المحبة، ويعتذر عن عبور الملك الألماني، وأنه قد فجع في طريقه بالأمان، ونال

من الشدة، ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه، وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع، ويموت بما به كاده، وأنه قد بلغ في أذاه اجتهاده، ويطلب رسولا يدرك به من السلطان سولا، فأجيب في ذلك إلى مراده، ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتداده.

وقال القاضي ابن شدّاد: كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسله ومكاتبه، وكان وصل منه رسول الى الباب الكريم السلطاني بمرج عيون سنة خمس وثمانين في رجب في جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد، واقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية، فمضى الرسول وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام، وشاهده جمع كبير من التجار، وركبي الخطيب المنبر واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام الدعوة الاسلامية العباسية، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يجرب بانتظام الحال في ذلك فأقام مدّة ولقد شاهده يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشايخ، وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب وتذكرة والكتاب محتوم بذهب، ولما مات وصل خبر وفاته إلى ملك قسطنطينية، فأنفذ هذا الرسول في تمة ذلك، ثم وصف القاضي الكتاب، وعبر عنه بألفاظه.

وقد عبر العماد عن معانيه فأغنى عن ذلك، ثم قال: وكان من حديث ملك الالمان أنه بعد أن استقرت قدمه في أنطاكية أخذها من صاحبها وتحكم فيه، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره، وكان له أموال برفقته، فأخذها منه غيلة وخديعة وأودعها في خزائنه، وسار عنها خامس عشري رجب، نحو عكا في جيوشه، وجموعه على طريق اللاذقية حتى

أتى طرابلس، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأساً وهو الأصل في تهيج الجموع، وذلك أنه صوّر القدس في ورقة عظيمة، وصوّر فيه صورة القمامة التي يحجون إليها، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوّر القبر، وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والجامع والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم فإنها أصل دينهم، فهاج بذلك خلائق لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، كان من جملتهم ملك الألمان؛ وجنوده فلقبهم المركيس لكونه أصلاً في استدعائهم إلى هذه الواقعة، فلما اتصل به قوَى قلبه وبصره بالطرق، وسلك به الساحل خوفاً من أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماه نازلهم المسلمون من كل جانب، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم، واختلف حزر الناس لهم، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر بهاتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه، ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجد في أعقابهم نيفا وستين فرساً قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدة الجوع وضعف الخيل، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطفهم من حولهم نهياً وأسراً وقتلاً حتى أتوا طرابلس، فأقام بها حتى استجم عسكره، وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدمه فوجها من ذلك، لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالمعسكر، هو الذي يرجع إليه في الأمور، فعلم أنه مع قدوم الملك الألماني لا يبقى له حكم، وفي أواخر شعبان نزل الملك الألماني في المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح اهلكت منهم ثلاثة

مراكب، وسار الباقون إلى صور، ثم وصل إلى عكا في نفر يسير في سادس رمضان، وكان لقدمه وقع عظيم عندهم، ووصل خبر وصولهم إلى طرابلس ثامن شعبان، والسلطان ثابت الجأش راسخ القدم لا يزعه ذلك عن حراسة عكا والحماية لها، ومراصدة العسكر النازل بها، وشن الغارات والمهجوم عليهم في كل وقت، مفوضاً أمره إلى الله تعالى، معتمداً عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً ببه من نفذ إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء، ولقد كنت إذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى إذا دخلت عليه أجد عنده من قوة النفس وشدة البأس ما يشرح صدري، وأتيقن معه نصر الاسلام وأهله.

فصل

في إدخال البطس إلى عكا

قال ابن شدّاد: كان رحمه الله قد أعدّ بيروت بطسه، وعمرها وأودعها أربعمائة غرارة من القمح، ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين، وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب في بطسه بيروت جماعة من المسلمين، وتزيوا بزى الفرنج، حتى حلّقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد، وعلقوا الصلبان وجاؤوا قاصدي البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو، فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أولم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا: لم نأخذ البلد بعد، فقالوا: نحن نردّ القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخرى في هوائها فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد، وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فأروها فقصدوها لينذروها، فاشتدّت البطسة الاسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت والله الحمد، وكان فرجا عظيما فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب.

قال: وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش، وهو والي البلد والمقدّم على الأسطول، وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد إلا قدر يكفي البلد إلى ليلة النصف من شعبان لا غير (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها) (٩٥) لخاص ولاعام خشية الشيوخ والبلوغ إلى العدو فتضعف به قلوب المسلمين، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والأدام والمير وجميع

ما يحتاج إليه في الحصار، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية، ولججت في البحر تتوخى النوتية بها الريح التي تحملها إلى عكا، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان، وقد فنيت الأزواد، ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم، وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الاسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بسلامتها إلى البلد، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال، ويدعو إلى ربه بنصره، وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره، وفي قلبه ما في قلبه والله يثبتته، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب، والله يدفع عنها والريح تشتد والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين، والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى مينا البلد، وتلقاهم أهل عكا تلقي الامطار عن جذب، وامتاروا بها فيها، وكانت ليلة بليال، وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان.

وقال العماد: كان السلطان قد أمر نواب الاسكندرية بتجهيز بطس كبار وتعميرها من كل ميرة وغلة وتسييرها إلى عكا، فأبطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بالبلد إعواز الأقوات، فافكر فيما يتعجل به الغرض، فكتب إلى متولي بيروت عز الدين سامة فجهز بطسة كبيرة، مملأها ميرة، وغلة كثيرة، وأركبها جماعة على زي الفرنج ممسوحى اللحى، ممسوخى الحلى، وأصحابهم صلبانا وخيل بهم رهبانا، وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة، وهي بساحل بيروت منبوذة، فأمر السلطان بترميمها وتتميمها، فملئت بالشحوم واللحوم، وأربعمائة غرارة غلة، وأجمال من النشاب والنفط، ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشته ببطس العدو في البحر، فشدوا زنانير واستصحبوا خنازير، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين، والى محادثتهم

ومجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوّبوا بها نحوها والريح تسوقها، والفرنج من مراكبها تقول: ماهذه طريقها، وهي كالسهم النافذ قد سدّد فوقها، فدخلت الثغر واجتزأ البلد بها نصف شهر، وظهرت رابع عشر رمضان من ثبج البحر ثلاث مراكب، كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامها كالأعلام، طائرة كالسهام، ولم تبال بمراكب العدو فخرقتها، وقربت من سفينة، فغرقتها، وعبرت وعين الكفر عبرى، وامتلأ الثغر بها وأثرى.

فصل

قال العماد: ووصل ملك الألمان، ورام أن يظهر بمجيئة وقعاء، ويبيدي به نفعاء، فدبوا في راجل كرجل الدبا، وخيل أغصت التوهاد والربي، وقربوا من تل العياضيه، وعليه خيم اليزكية، والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصرية، والعصبة الموصلية، فثارت إليهم، ودارت عليهم، وركب السلطان، وتقدم إلى تل كيسان، ولم يزل الحرب إلى أن جن الظلام، وكف الكفر، وسلم الاسلام، وكانت الدائرة على الكفرة.

قال القاضي: وقتل منهم وجرح خلق عظيم، والسيف يعمل في بقيتهم وهم هاربون حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه، وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان، وجرح جماعة كثيرة.

ومن كتاب إلى بغداد: «قد بلي الاسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين الأوطان والأوطار، وهجروا المؤلفين الأهل والديار، وركبوا اللجج ووهبوا المهج كل ذلك طاعة لقسيسهم وامثالاً لأمر مركيسهم وغيره لمتعبدهم وحمية لمعتقدهم وتهاككا على مقبرتهم، وتحرقاً على قمامتهم، ولا يطلبون مع شدة الاملاق مالاً، ولا يجردون مع كثرة المشاق ملالا، بل يتساقطون على نيران الطبي تساقط الفراش، ويقتحمون الردى متدرعين الصبر مثبتتي الجأش، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجهزات، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل، والتزمت بمؤنتهم فصودف مركبها بقرب الاسكندرية فأخذت برجالها، وأراح الله شر احتفالها، ومنهن ملكة وصلت مع ملك الالمان، وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات، وقد وجد في الوقعات التي جرت عدّة منهن بين القتلى، وماعرفن حتى

سلبن، وإن البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعهم ومشاربهم، وقال: من لا يتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محرم، لامنكح له ولا مطعم، فلأجل هذا يتهافتون على الورد، ويتهالكون على يومهم الموعد، وقال لهم: إني واصل في الربيع، جامع على الاستنفار شمل الجميع، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول إن لله أهلا وولدا، فهذا شرح هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم ولجاجتهم في غوايتهم، بخلاف أهل الاسلام، فإنهم يتضجرون ولا يصبرون، بل يتفللون ولا يجتمعون، ويتسللون ولا يرجعون وإنما يقيمون ببذل نفقة، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة، ليعلم أن الاسلام من عند الله منصور، وإن الكفر بارادة الله محسور ومدحور.

قال القاضي: ولما عرف ملك الألمان ماجرى على أصحابه من اليك الذي هو شذمة من العسكر، رأى أن يرجع إلى قتال البلد، ويشغل بمضايقته، فاتخذ من الآلات العجيبة، والصنایع الغريبة، ماها الناظر إليه وخيف على البلد منه، فما أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحركها من داخل، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة فتهدمه بتكرار نطحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال تسحب ذلك إلا أن رأسها محدد على مثال السكة التي يجرث بها، ورأس الكبش مدور هذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها وهي تسمى سفودا، ومن الستائر والاسلام الكبار الهائلة، واعدوا في البحر بطسة غائلة، وصنعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقى طريقا إلى المكان الذي ينقلب عليه يمشى عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به.

قال: ونصب العدو على البلد منجنيقات هائلة، حاكمة على السور

وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه أثرا بينا، وخيف من غائلته فأخذ سهمان من الجرخ العظيم، وأحرق نصلهما حتى بقيا كالشعلة من النار، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه، واجتهد العدو في إطفاء النار، فلم يقدر على ذلك، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما، واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته، واشتدت ناراها بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانها ليحتال في إطفائهما، وكان يوماً عظيماً اشتد فيه فرح المسلمين، وغم الكافرين».

قال: «ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها، يعني نوادر ماجرى في القتال على عكا، أن عواما مسلما كان يقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتبا للعسكر، وعام في البحر فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره عنا، وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائر عرفنا بوصوله، فابطأ الطائر فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتا غريقا فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب، ومشمع الكتب، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فمارؤي من أذى الأمانة في حال حياته، وقدر الله له أدها بعد وفاته إلا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضا».

وقال العماد: فقد —يعني عيسى— ولم يسمع له خبر ولم يظهر له أثر، فظنت به الظنون، وماتيقنت المنون، وكانت له لاشك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حاله وهي مجهلة محتملة، فوجد في عكا ميتا قد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مما قالوا، فذهب اليقين من الظنون بباطلها.

فصل

في احراق ما حوَصر به برج الذبان وتحويل الكبش

قال القاضي: وفي الثاني والعشرين من شعبان، جهز العدو لعنه الله بطساً متعددة لمحاصرة برج الذبان، وهو برج وسط مبني على الصخر على باب مينا عكا، تحرس منه المينا، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدو، فأراد العدو أخذه ليبقى المينا بحكمه ويمنع من دخول شيء من البطس إليه، فتنقطع الميرة عن البلد، فجعلوا على صواري البطس برجاً وملؤوه حطباً ونفطاً على أنهم يسيرون البطس فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصاري، وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقوداً على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الاسلامية، ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية، ويهلك ما فيها من المير، وجعلوا في بطسة ثلاثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل إليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو فأمنوا وأحرقوا ما أرادوا إحراقه، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور، وكان طمعهم مشتداً حيث كان الهوا مسعداً لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به من على البرج فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهوا عليهم، كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة إلا من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت معدة لإحراق بطسنا، ووثب أصحابنا عليها فأخذوها إليهم وأما البطسة التي فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطراباً عظيماً فانقلبت، وهلك جميع من بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى، وأندر العجائب في نصرة دين الله والله الحمد، وكان يوماً مشهوداً.

وقال العماد: وعند مينا عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان، وهو في حراسة المينا عظيم الشأن، وهو منفرد عن البلد محمي بالرجال و العدد، وقصد الأفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها، ومراكب عظام الآلات أبرزوها، ومكر مكروه، ودبردبروه، وأحد تلك المراكب قد ركب برج فوق صاريه، لا يطاوله طود ولا يياريه وقد حشي حشاه بالنفط والحطب، وضيق عطنه بسعة العطب حتى إذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته أعدى إليه بأفاته، ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الأخشاب والستائر مابه التصق، واستولت النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها، ولم يقربوا منها، وأوقدت بطسة الحطب التي من ورائها، وعادت على الفرنج فالتهبوا، وحمل عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا، وانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا، والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يغرقوا، واحتمى برج الذبان فلم يطر عليه من بعدها ذباب، ولم يفتح للعدو في الكيد له باب.

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن: «ومن حديث هذا البرج أنه يحيط به البحر من جوانبه، وهو قفل مينا الثغر على مراكبه، وقد رفعناه وأعليناه، وبالعدد والرجال قويناه فعمدوا إلى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقلا كأنه سلم، وهو في مقدمها مركب مقدم، وقد جعلوها بحيث إذا قرب إلى البرج ركب رأس السلم على شراريفه، وصعد الرجال إليه في تجاويره، وتعبوا في ذلك أياما، وأشبعوه توثيقا واحكاما، حتى إذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط، وتوالت امطار البلايا من الجروح والمنجنوقات على أولئك الرهط، ثم عمل الفرنج برجاً عاليا في أكبر مركب وحشوه بالحطب، وعملوا على رأس صاريه مكاناً يقعد فيه الزراق، وقدموه إلى برج الذبان، وسلطوا على جوانبه النيران، فأهب الله

من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس، وكبت الفرنج على الوجوه والرؤوس.

قال القاضي: وفي ثالث رمضان زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى فأهلهم أهل البلد حتى نشبت مخابل اطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور، وتحصل منهم في الخندق جماعة عظيمة، فأطلقوا عليهم الجروح والمجانيق والسهام والنيران، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدو من كل جانب، وكبسوهم في الخنادق فهربوا ووقع السيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فأحرق حريقاً شنيعاً، وظهرت له لهبة نحو السماء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون في الكبش الكلاب الحديد المصنوعة في الاسل^(٩٦) فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة، وألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام، وبلغنا من البلد أنه وزن ما كان عليه من الحديد، فكان مائة قنطار بالشامي، والقنطار مائة رطل، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثال السفود الذي يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به السور فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أحسن أيام الاسلام، ووقع على العدو خذلان عظيم، ورفعوا ماسلم وآلاتهم، وسكنت حركاتهم التي ضيقوا فيها نفقاتهم، وقال العماد: واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، في رأسها شكل عظيم، يقال له الكبش، وله قرنان في طول رحمين كالعمودين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت^(٩٧) الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فلم يبق للنار إليها سبيل، ولا للعبط عليها دليل، وملؤوها

بالكمة والرماة وسحبوها وقربوها فجاءت صورة مزعجة، وبلي البلد منها بالبلاء الأفظع، وقالوا: ما في دفعها حيلة ولا مطمع ونصبوا على صوبها مجانيق، ورموا بالحجارة الثقيلة ذلك النيق، فأبعدت رجالها من حواليتها ثم رموها بحزم الحطب حتى أحرقوا ما بين القرنين، وقذفوها بالنار فباتوا يطفئونها بالخل والخمر وقد تمكنت النار من أضلاعها، ثم خسفها المنجنيق وخرج من بالثغر فقطعوا رأس الكبش، واستخرجوا ماتحت الرماد من العدد بالنبش، وقدر ما نهب من الحديد بمائة قنطار، وعلم الفرنج أن أعمالهم حبطت، وأمالهم هبطت، وكان ذلك في ثالث عشر رمضان، وفيه قدم الظاهر صاحب حلب والأجد صاحب بعلبك، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعزالدين بن المقدم والامير حسام الدين حسين بن باريك، وجماعة من الأمراء والخواص والمماليك.

فصل

في حوادث آخر متفرقات

قال العماد: ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب أنطاكية أغار على غرة بشر وشره، فرتب أصحابنا له كميناً، ثم خرجوا عليه شمالاً ويمينا، فقتلوا أكثر رجاله وأفلت وباله في وباله.

قال القاضي: خرج عليه نواب الملك الظاهر، فقتل من عسكره خمسون نفرأ وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيخ حتى اندفعوا وسار إلى بلده.

قال: وفي أثناء العشر الأوسط ألفت الريح بطستين، فيها رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدو، فغنمها المسلمون، وكان العدو قد ظفر لنا بركوس فيه رجال أراد الدخول إلى البلد فأخذه، فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابراً له.

قال العماد: وفي هذا التاريخ ألفت الريح إلى ساحل زيب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء، وفيها امرأة محتشمة غنية محترمة، فأخذتا وأخذوا وأخذت، وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت.

قال: وفي تاسع عشر الشهر رحلنا إلى منزلة تعرف بشفرعم، وسببه أنه كثر المستأمنون من الفرنج وأخبروا أنهم في عزم الخروج إلى المريج هائجين إلى الثأر، نائرين إلى الهيجاء فاستشار السلطان أمراءه فقالوا: الصواب أن نفسح لهم عن هذه المروج، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج، فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر، فخيمننا هناك ورحبت المنازل وعذبت المناهل، وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا

التلال والآكام، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام، ونزلنا لمقام الشتا مستعدين، ولأسباب التوقي من الأمطار مستنجدين.

قال: ومرض زين الدين صاحب إربل في شهر رمضان، وتوفي في الثامن والعشرين منه.

قال القاضي: وكان استأذن في الرواح فلم يؤذن له، فأستأذن في الانتقال إلى الناصرة فاذن له، فأقام بها أياما يمرض نفسه، ثم توفي وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده، وحرزن الناس عليه لمكان شبابه وغرخته.

قال العماد: وكان كريماً أرحيماً، جواداً سخياً، وبكرنا إلى مظفر الدين نعزيه في أخيه، وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء، مهتم بالاحتياط على ما خلفه أخوه وتركه من الأشياع والأشياء، وهو جالس في مخيم أخيه المتوفى، وقد أشرف على حفظه وأوفى، وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم، وعجل عليهم وما أغفلهم، منهم: صارم الدين بن بلداجي متولي خفيتان^(٩٨)، كان ليتسلم منه المكان، وكذلك كل حاضر له حصن ليحصل له من طاعته أمن، وخاطب في اسباب ولاية إربل وأعمالها، وأن يستقل ببلادها وأموالها، ورجب في شهرزور واستضافتها لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها، وأنه ينزل على حران والرها وسميساط والموزر، ويجعل كل ما في يده من الأعمال في الموفر، ويخدم بخمسين ألف دينار، يحضرها نقداً، ويلتزم بها على الميثاق عقداً، فاجيبت رغبته، وأصببت طلبته، وعقد لواؤه، ونجح رجاؤه، وأراد سرعة الرحيل، فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ثالث شوال وأضيف إليه ما استعيد من مظفر الدين من الأعمال، وكتب منشور إربل، وكتاب إلى صاحب الموصل فيه: «لاشك في إحاطة العلم

بانتقال زين الدين إلى جوار الله ومقر رحمته، مجاهداً في سبيله، شاكراً
لنعمته، وهو من السعداء الذين أنزل الله تعالى فيهم: (ومن يخرج من
بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (٩٩)
فما أفجع القلوب بمصابه، وما أنكى في النفوس أفول شبابه، ولقد كانت
الهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته، ولكن الله تعالى استأثر به قبل
ظهور حسن الآثار في ايثاره، وبلي بدره التم بسراره، وأصبح في ضمير
البلى من أسراره، وهذه إربل من انعام البيت الكريم الأتابكي على
البيت الزيني مذ سبعين عاماً، لم يحلوا لعقد انعامهم بها نظاماً، ولم
يزيدوا أحكامه إلا احكاماً وإبراماً، وما رأى أن يخرج هذا الموضع منهم،
وأن يصدف به عنهم، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه،
والمقدم في الولاية بمقتضى وصية أبيه، وقد أنهض ليسد مسد أخيه».

قال: وكان الملك المظفر تقي الدين متولياً منذ سنين أعمال ميفارقين،
فطلب من عمه تفويض كل ما وراء الفرات إليه والاعتماد فيه عليه،
فأنعم عليه بذلك فأقام عندنا بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المضي
إلى تلك الولاية، وسير نوابه إليها لابقاء رعاياها على شيمة الرعاية.

قال : ولما أحس العسكر الشرقي بالشتاء أبدوا خلق السامة،
وضجروا من الاقامة، وأماعاد الدين صاحب سنجار فإنه عرف كراهية
السلطان لفراقه، فلم يجر إلا على وفاقه، وأما صاحب الجزيرة سنجر
شاه، فإنه استطال المقام وأباه، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل
يده وودعه من غير سابقة الاستئذان، فأغضبه انفصاله، وساء ارتحاله،
وكان تقي الدين واصلاً فلقي صاحب الجزيرة عنا فاصلاً، فردّه عن
طريقه، وجد في تعويقه، ورجع به إلى الرضى، وعفا الله عما مضى.

قال القاضي: ترددت رسله ورقاعه إلى السلطان في طلب الدستور،
والسلطان يعتذر بأن رسل العدو متكررة في معنى الصلح ولا يجوز أن

تنفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وهو ملثا بالجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته، وتبعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعة كتب إليه: «إنك أنت قصدت الإنتهاء إلي في الابتداء فبسطت يدك وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك، فقبلتك وأويتك ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام، فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المدينة وقلقت هذا القلق، وتحركت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدو، فانظر لنفسك وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات»، وسلم الكتاب إلى نجاب فلحقه قريباً من طبرية فقرأ الكتاب، ولم يلتفت وسار، فلقبه تقي الدين عند عقبة فيق فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له في الرواح، ففهم تقي الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فأمره بالرجوع وقال: أنت صبي ولا تعلم غائلة هذا الأمر، فقال: ما يمكنني الرجوع، فقال: ترجع من كل بد من غير اختيارك، وكان تقي الدين شديد البأس مقداماً على الأمور ليس في عينه من أ حد شيء، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه، وسأل السلطان الصفح عنه ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره إلى حين ذهابه.

وقال العماد في الفتح: وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام، وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان:

من ضاع مثلى من يديه

فليت شعري ما استفادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخطاب ولا غادى

وقال في البرق: وفي مستهل ذي القعدة أذن لعلاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل، ونعت بالملك السعيد لما تفرس فيه من أمارات السعد، وأقام بعده عمه عماد الدين وابن عمه معز الدين سنجرشاه وهما صاحبا سنجار والجزيرة، وحبوا بالحباء الوافر والعطايا الغزيرة، ومافارقا إلا في السنة الأخرى في ثالث صفر.

قال: وغلت الأسعار عند الفرنج حتى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار، والسعر من الزيادة لديهم في استعار، وبلوا بأمور صعبة، وهرب إلينا منهم عصابة بعد عصابة، فاستأمنوا إلينا لفرط جوعهم جميعهم، ولما نشبعوا عندنا لم يرغبوا في رجوعهم، فمنهم من أسلم فحسن إسلامه، ومنهم من خدم فوافق استخدامهم، ومنهم من حن إلى إلفه، فرجع القهقري إلى خلفه.

فصل

كان القاضي الفاضل رحمه الله تعالى في هذه الأوقات بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الاسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكتابه في مهماته، وترجع اجوبته بأحسن عباراته، مشيراً وناصحاً ومسلماً، وباحثاً عن مصالح الاسلام متقصياً، فمن بعض كتبه: « المملوك ينهى أن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان باديه، والمظالم في كل موضع فاشيه، وقد طلع إلى الله تعالى منها ما لا يتوقع بعدها إلا ما يستعاذ منه، وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمشيئة الله له حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه، بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبه ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الاجساد، وتتصدع بذكرها الأكباد، والمملوك لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات في أتباعه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتها وتفقدتها في أشتيه القدس العظيمة الجلييلة الثلجة لا يؤمن سقوطها، وافتضاح القدرة في العجز عن اعادةتها، والمرمة أقرب تناولاً من الانشاء والتجديد، ولا شبهه أن مولانا عز نصره في اشغال شاغلة وأمور متشدة، وقضايا غير واحدة ولا متعددة، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا، وأضجرتهم الايام فما ضجروا، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود، وصبر في طلب جنتها على نار الحربي والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام، فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل في الامور الخطيرة، ولا يقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة، فالمولى إذا أقبل كان واحداً، وإذا أدبر كان مقوماً بجميع الخلق، ولا يطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرملة التي كان وقوعها من الله سبحانه

أدباً لاغضباً وتوفيقاً لا اتفاقاً، ولا يكره المولى أن تطول مدة الإبتلاء بهذا العدو، فثوابه يطول وحسناته تزيد، وأثره في الاسلام يبقى، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها، (والعاقبة للتقوى) (١٠٠) (ولينصرن الله من ينصره) (١٠١) والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده، وبرأيه وبولده، وبخاصته، وبعامته جنده، وبالاعداء في أعدائه كجهاده بصاحب صيدا في الفرنج، فهو جهاد قد أربى فيه رأي المولى فرجح والحديد يفلح، وأكد ما قبل به العدو سلاحه، وأسرع جناح طار لقصه جناحه، ودولة مولانا كالبحر كرما وظهور عجائب، وكالسماء مطرا وأسنة كواكب.

ومن كتاب آخر: «المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، لطف الله بقلبه، وحمل عنه، وروح سره، ووصل الراحة به، ونسأل أن يرحمه لنا الذي رحمنا به، فقد بلغت منا الحناجر القلوب، وقد وقفت في طرفنا الذنوب، وبيننا نحن ننتظر من كتب المولى ما يستدل به على أن قلب المولى قد طاب، وقصد العدو قد خاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا للاكباد مفتتا للقلوب ولو أنها جماد»، ثم ذكر البطس الذي تقدم ذكرها الواصلة إلى عكا ليلة نصف شعبان فقال: «وبينا نحن نعتقد أن البطس في عكا، وصل الخبر بأنها في دمياط، ويوم وصل الخبر بأنها في دمياط نحن على انتظار خروجها منه، وكتب البطائق بالاستحاث والاستعجال، وتحذيرهم من تمادي المقام وماتيقنا أخرجت أم هي باقية، كأن الريح في بيت ماخرجت منه من هاتين الجمعيتين، ولها من تاريخ خروجها من الاسكندرية وإلى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوما والعيون ممدودة، والأيدي مرفوعة بأن يفرج الله عنا وعنكم بوصولها، فمن شبع في هذه الأيام فما واسبى المسلمين، ومن نام ملء عينه، فما هو من أخوة المؤمنين، والمملوك شفيق على البطس في وقت الدخول حذر أن يعترض العدو طريقها، فيحول بينها وبين الوصول، فينكس المراد بها، ويحدث من المضرة بحرمانها أضعاف

ما يحدث من النعمة بالفرج المسير فيها، وأكد هذه الحال في نفس المملوك وقوفه على كتب أصحابنا من عكا، وقد وقع لهم هذا الواقع الذي وقع للمملوك من خوفهم عليها، واستبعادهم دخولها، فالمملوك وكل من يعرف الأمر إلا كأهل الصراط، رب سلم رب سلم، فنسأل الله سبحانه أن لا يكلنا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى الناس فنضيع، ومجهود أهل الأرض قد انتهى وبقي ما يفعله الله، والخير منتظر منه، والفرج بالقوت قد سير في البحر من خمسة عشر يوماً، والفرج بالنفقة قد سير في البر من عشرة أيام، والله يمولانا ما تنجز شيء من هذه الأمور إلا بأن تضرب الوجوه بالشوك، وتستحلب الحجارة وبينه النوم، وتبج الأصوات من التذكار، وتحفى الأقلام من الكتابة، ويخضع لمن يلزمه الشغل كالخضوع لمن لا يلزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيته في الاستعانة، والأعوان قليل.

وقد كانوا إذا عدوا قليلاً

فقد صاروا أقل من القليل»

ومن كتاب آخر: «وما تجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة، والتماس العسكر الشرقي الدستور للضجر، وحاجة المولى من الانفاق إلى ما لا يسعه التدبير، ويضيق عنه الامكان، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه وضياع فرصة، واختلاف رأي بين المشاور من الجماعة، وجود الألسنة بالأراء، وبخل الأيدي بالمعونة، وانفراد المولى بالتعب، واشتراك الناس في الراحة، وما ابتلي به المسلمون من مرض أظهوره ليكون لهم عذراً في القعود، وكتمه على نفسه لثلاثين يوماً لأصحابنا ضعف النفوس، فهذه الأمور وإن كانت شدائد، وزائدات على العوائد، فقد أهدم الله مولانا فيها سعة الصدر، وحسن الصبر، ليشعره أن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجر، ولو لم يعرف المملوك غير الله ينصرها، وغير مولانا

يباشر النصره ويحضرها، فليس إلا التجرد للدعاء، والتجلد للقضاء، فلا بد من قدر مفعول، ودعاء مقبول، ومن الامثال المنظومة:
نحن الذين إذا علوالم يبطروا
يوم الهياج وإن علوالم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، وأن يسلم على يدينا القدس ثم ينصره، ثم معاذ الله أن نغلب على النصر، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر، وإذا كان ماتقدم الله اليه الممالك قبل المولى لآبدمنه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا، خير من أن نلقاه والحجة علينا، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر بصره، وتملاً صدره (فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم) ^(١٠٢) وهذا على دين ماغلب بكثره، ولانصر بثروه، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف، (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) ^(١٠٣)، واشتدّي أزمة تنفرجي، والغمرات تذهب ثم لا تجيء، والله تعالى يسمع الأذن مايسر القلب، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ما ابتلى إلا بذنب».

ومن كتاب آخر: «يامولانا اعلم أن الله تعالى قد فعل لك ما فعله لنفسه، ودل على لطفه بك كما دل على قدرته، فإنه تعالى خلق من غير مادة، وأقام السماء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبيه في الملوك: كرماً، وديناً، وسهل لك من مصر مالاً من غير جهة، وحمى منها بلاداً بغير جند، وسكن رعية بغير ولاة فاشكر الله، ولا تحتقر خدمة من يبيع الأنفاس، والنوم والراحة اجتهاداً فيما يريحك، ويخفف عنك ثم لا يريد العوض منك إنما يريد من الله عنك، لأن خدمتك طاعة والوجوه التي وقعت الاشارة إليها خضنا فيها وفي غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا إليه، يامولانا ليس لك في مصر إلا الثغور، وما عملت في هذه السنة

إلا بقدر ثمن حمال ماسير اليك من الأساطيل إن الله آخذ بيد الكريم، والمعونة بحسب المؤونة فليهن المولى العافية من الحساب، فشتان: ما بين حساب من كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله، وحساب من قال بيده هكذا وهكذا في سبيل الله» ومن كتاب آخر» وما في نفس الملوك شائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بجسم مولانا، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا.
بنامعشر الخدام مابك من أذى
وإن أشفقوا مما أقول فبي وحدي»

ومن كتاب آخر: «إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولو أظعننا لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره، لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به فلا يستخضم أحد إلا عمله ولا يلم إلا نفسه، ولا يرج الأربه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأصول أن تحصر، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، ولأن آمن أن يكلنا الله إليها والنصر به، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا فلولا أنها مسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق».

وفي كتاب آخر وصف فيه الملك العزيز عثمان بن السلطان ثم قال: «ولو شاهد مولانا اليوم شخصه الكريم، وصورته الجميلة، ونفسه الطاهرة، ونظرته المطرقة، وصفحته الحية، وسكون حركاته الموزونة، لخلع عليه فؤاده، ووهبه عينه ورقاده، ولقد يرد المولى عرصات القيامة وثواب فراقه له لوجه الله أعظم من ثواب جهاده في سبيل الله، وإن إيماننا صبره عن ذلك الولد الكريم لكريم، وإن إيماننا أسلى عن ذلك الملك لعظيم».

ومن كتاب آخر: «وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خوراً، وإنما يشكو منه ضجراً، والقوى البشرية لا بد أن يكون لها حد، والاقدار الالهية لها قصد، وكل ذي قصد خادم قصدها، وواقف عند حدها، وإنما يذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله قال الله تعالى: (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)^(١٠٤) يامولانا أليس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل، ولم يستصلح، ولم يختر ولم يسهل، ولم يستعمل ولم يستخدم في إقامة دينه وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه، وحماية شعاره وحفظ قبلة موحديه إلا أنت، هذا وفي الأرض من هو للنبوّة قرابه، ومن له المملكة وراثته، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد كثرة، فأقعدهم وأقامك، وكسلهم ونشطك، وقبضهم وبسطك، وحبب الدنيا إليهم، وبغضها إليك، وصعبها عليهم وهونها عليك، وأمسك أيديهم، وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وجرّد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبطهم وسيرك، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين)^(١٠٥) نعم و أخرى أهم من الأولى انه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض، وأطراف الدنيا، ومغرب الشمس ومزخر البحر ماتأخر منهم متأخر، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لأموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم (مهطعين إلى الداع)^(١٠٦) ساعين في أثر الساعي (وهم من كل حذب ينسلون)^(١٠٧) ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يامولانا كما قال أبقاك الله: ولست بملك هـ ازم لنظيره

ولكنك الاسلام للشرك هـ ازم

هذا: وليس لك من المسلمين كافة مساعدة، إلا بدعوة، ولا مجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معك إلا بهم، ولا خارج بين يديك إلا بالاجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة تشتري منهم الخطوات شبرا بذراع،

وذراعا بباع، تدعوهم إلى الله وكأنها تدعوهم إلى نفسك، وتسألمهم
الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة، وكأنك تريد أن
تستأثر بها دونهم، والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك،
فقائل: لم لا تتباعد عن المنزلة، وآخر لم لا نميل إلى المصالحة، ومنتدم على
فائت ماكان فيه حظ، ومشير لمستقبل مايلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي
عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة، وماكأنها طليعة الجيش، ولا
قفل الدار، ولاخرزة السلك، إن وهت تداعى السلك وأنبت في يد
الملك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذل، والتجلد وتحت قدمك
الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر.
ولكن مولانا صفيحة وجهه

كضوء شهاب القابض المتنور

قليل التشكي للمهم نصيبه

كثير الهوى شتى النوى والمسالك

ولا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، واماراده إلا
أن يشكر الله على ما اختاره له ويسر عليه، وحببه إليه فرب ممتحن
بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم
من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لا يتغير لمولانا أبقاه الله وجه
عن بشاشه، ولاصدر عن سعة، ولالسان عن حسنه، ولا ترى منه
ضجره، ولا تسمع منه نهره، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج
ويبقى أجرها، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا عز نصره بطرا، فلا
حدث له ساعات الامتحان ضجرا، والمملوك يستحسن بيتي حاتم،
ومولانا أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه يحفظها:

شربنا بكأس الفقريوما وبالغنى

ومامنهما الأسقانا به الدهر

فما زادنا بغيا على ذي قرابة

(١٠٨)

غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر

والمملوك يسمع بأن مولانا عز نصره على ما يعهده من سعة صدره، أسر منه بما يسمعه من بشائر نصره وياليتني كنت معهم، وماذا كانت تصنع الأيام إما شيئا من مشاهدة الحروب، فقد شبننا والله من سماع الأخبار، أو غرما يمكن خلفه من الوفر، فقد غرمننا في بعد مولانا ما لا خلف له من العمر، أو مرض جسم فخيره ما كان الطبيب حاضره، ولقد مرضنا أشد المرض لفراقه، إلا إن التجلد ساتره».

ومن كتاب آخر: «المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قلب المولى فيروحه ولا يجمله ويشغله بما يثقله، ويوصي المولى بقلوب المسلمين، وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله من علم أنه لا توفيه رواتب الحياة اشتغل قلبه، واستطار لبه، وضعفت نفسه، فيحسب المولى من جهاده تفقد جسمه، وآلات مطعمه، وترويح خطراته، فقد بلغ من حمله على نفسه ما يخشى على مولانا الإثم فيه، وإنما نتجشم كل مشقة لتسلم منه، ونحن في ضرر قد مسنا، ولا نرجو لكشفه إلا من ابتلى به، وفي طوفان فتنه، (ولاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) ^(١٠٩) ولنا ذنوب قد سدّت طريق دعائنا، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا، والله قدر لاسلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لاحول ولا قوة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) ^(١١٠) وقد جمع العدو لنا، وقيل لنا أخشوه فقلنا (حسبنا الله ونعم الوكيل) ^(١١١) متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس لنا إلا الاستعانة بالله فما دلنا الله في الشدائد إلا على الدعاء له، وعلى طروق باب كرمه، وعلى التضرع إليه (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) ^(١١٢) ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرحمة، ومن اليأس من الفرج، فانه لا ييأس منه إلا مسلوب الرشد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه، ولا حيلة إلا بترك الحيلة، بل قصد من تمضي أقداره بلا حيلة، سبحانه وتعالى إن علم الله من جند مولانا أنهم

قد بذلوا المجهود، فقد عذرهم فيعذرهم المولى، وإن علم أنهم قد
ذخروا قوة وقصروا في نصره كلمة الله، فيكفيهم مقت الله، والمملوك يذكر
المولى بصبره، ويرحب صدره، ويفضل خلقه وبتقواه لربه، وبمداراة
مزاجه ووبر القلوب الإسلامية ووبر جسمه، (وإن كان كبر عليك
اعراضهم) الآية إلى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (١١٣) والمولى
أولى بهذا البيت

لابطـران تتابعـت نعم

وصابـر في البلاء محتسب

قيل للملهم: أيسرك ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره العجز، ولا بد
أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لاراد لحكمه، فلا يتسخط مولانا بشيء من
قدره، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو
ساخط موزور، فيصطلي نار الشدة أعاده الله منها، ولا يجرد راحة
الثواب، وفر الله حظه منه، ومن شكائبه وحزنه إلى الله شكاً إلى
مشتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربه دعاء خفياً استجاب له استجابة
ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولا يقطع الظهور التي
لا تشتد إلا به، ولا يضيق صدور الا تنفرج إلا منه، وما شرد الكرى،
وأطال على الأفكار ليل السرى إلا ضائقة القوت بعكاً، ولم يبق إلا
ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس واعفاؤها من الفكرة، فقد علم
مولانا المباشرة أنه لا يدبر الدهر إلا رب الدهر، ولا ينفذ الأمر إلا
بصاحب الأمر، وأنه لا يقلل لهم إن كثر الفكر.

قد قلت للرجل المقسم أمره

فروض إليه تنم قـرير العين

وكل مقترح يجاب إليه إلا ثغراً يصير نصرانياً بعد أن أسلم، أو بلداً
يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يامولانا هذه الليالي التي رابطت فيها
والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى

فيها: يا خيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس، وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بإثائها بل بناها هي نعمة الله عليك، وغراسك في الجنة، ومحملات محضرك (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) ^(١١٤) وهي مجوزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لانطمع في اللحاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، ما استعمل الله في القيام بالحق إلا خير الخلق، وقد عرف ماجرى في سير الأولين وفي أنباء النبيين، وإن الله تعالى حرص نبيه ﷺ على أن يهتدي بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدي بأولي العزم منهم، وما تغلو الجنة بثمر، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا، وكان ما قد كان لم يكن ويذهب التعب ويبقى الأجر، وإنما يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى هما يضعف به جسمه، ويضر مزاجه، والأمة بنيان وهو أبقاه الله تعالى قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصره الحق، ومما يستحسن من وصايا الفرس: إن نزل بك مافية حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك مالميس لك فيه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع، ورب واقف في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه، وكفى خطبة (وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) ^(١١٥) هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها، وقتلت هذا بإيماه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره، ولا تعويلا على قوة إلا على قوته، فهنالك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يقل متى نصر الله، وليصبر فإنما خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلي: أنت المعافي، وليرض عن

الله سبحانه فإن الراضي عن الله هو المسلم الراضي، فأما أخبار فتنة بلاد العجم، فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم، (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) (١١٦).

وكتب السلطان الى القاضي الفاضل كتابا من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من امارات النصر ، ويقول « ما اخاف الا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها » فكتب اليه الفاضل : « فأما قول المولى إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محبت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعفيت، فيكفي مستغفر لسان السيف الاحمر في الجهاد، ويكفي قارعا لابواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، ولعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سعت في منهاجك، وطوبى لوجه تلثم بمثار عجاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت ».

فصل

كان بلغني أن السلطان رحمه الله لما اشتد أمر الفرنج على عكا ، أرسل إلى ملك المغرب يستنجده عليهم ليقطع عنه مادتهم من جهة البحر، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فإن العماد والقاضي لم يتعرض له في كتبهما، غير ان العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ما كان أرسله لأجله، وسيأتي ، وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها، ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقة بخطه، ماكنت أرومه فنقلته على وجهه.

قال : نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل، ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر الى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله ، يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حصر الفرنج خذلهم الله عكا بعد كسرة حطين، وفتح بيت المقدس ، والكتاب الذي سير الى المغرب، والهدية التي حملت يأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمر الاجل الاسفهلار الاصيل ، العالم المحترم شمس الدين ، عدة الاسلام ، جمال الانام ، تاج الدولة ، أمير الملة، صفوة الملوك والسلطين ، شرف الأمراء، مقدم الخواص أدام الله توفيقه، ويسر طريقه وانجح مقصده ، وأعذب مورده، وحرس مغيبه ومشهده، وأسعد يومه وغده، يستخير الله سبحانه، ويتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الاسلامية المغربية ، حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها ، ويستقرىء في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم ، وأشغالهم وأفعالهم ، ومايجبونه من القول نزره أو جمه،ومن اللقاء منبسطه

أومنتقبضه، ومن القعود ، مجالسهم مخففة أو مطولة ، ومن التحيات المتهاداة بينهم ماصيغته وماموقعه، وهل هي السنن الدينية ، أو العوائد الملوكية ، ولا يلقه الا بما يحبه، ولا يخاطبه الا بما يسره ، والكتاب قد نفذ اليه ولم يختم لتعلم. ماخوطب به، والمقصود أن تقص القصص عليه من أول وصولنا إلى مصر ، وما أزلنا من البدع بها، وعطلنا من الإلحاد فيها، ووضعنا من المظالم عنها ، وإقامة الجمعة، وعقد الجماعة فيها، وغزواتنا التي توصلت إلى بلاد الكفار من مصر، فكانت مقدمة لملك الشام الاسلامي باجتماع الكلمة علينا، ومقدمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا، وتفصيل ماجرى لنا مع الفرنج مع الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم ، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس ، و تلك على الاسلام منة الله العظمى إلى غير ذلك من أخذ الثغور وافتتاح البلاد واثخان القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب وخروج نجداتهم وكثرتها وقوتها، ومنعتها وغناها وثروتها، ومسارعتها ومبادرتها ، وإنه لا يمضي يوم إلا عن قوة تتجدد ومبرة تصل، وأموال واسعة تخرج ، ومعونات كثيرة تحمل وإن ثغرنا حصره العدو، وحصرنا نحن العدو، فما تمكن من قتال الثغر ، ولا تمكن من قتالنا ، وخذق على نفسه عدة خنادق، فما تمكننا من قتاله ، وقدم الى الثغر أبرجة أحرقتها أهله، وخرج مرتين الى عسكرينا فكسر العدو الكثير أقله، فانه اغتنم أوقاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد ساعات لم تكن الأهب فيها مأخوذة ، وأقدم على غرة استيقظت فيها نصره الله لنا وخذلانه لهم، فقتل الله العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار ، خرجت أنفسها إلى مصارعها، وهمدت أجسامها في مضاجعها ، والعدو وإن حصر الثغر فإنه محصور ، ولو ابرز صفحته لكان باذن الله هو المشبور المكسور، وتذكر مادخل

الثغر من اساطيلنا ثلاث مرات ، واحراقها لمراكبهم ، وهي الاكثر،
ودخولها بالميرة بحكم السيف الاطهر.

وإن أمر العدو مع ذلك قد تطاول، وخطبه قد تمادى ، ونجدته
تتواصل، ومنها ملك الالمان في جموع جماهيرها مجمهرة ، وأموا قناطيرها
مقنطرة ، وإن عساكرنا لو أدركته لما استدرك ، ولولا سبقه لها بالدخول
إلى انطاكية لتلف وهلك ، وتذكر أن الله قصم طاغية الالمان، وأخذه
أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيا الذي هو طريقه إلى الاحراق في نار
الآخرة ، وإن هذا العدو لو أرسل الله عليه أسطولا قويا مستعدا يقطع
بحره ويمنع ملكه ، لأخذنا العدو إما بالجوع أو الحصر، أو برز فأخذنا
بيد الله تعالى التي بها النصر، فإن كانت الاساطيل بالجانب المغربي
ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقاء فارهة ، وللمسير غير
كارهة، فالبدار البدار ، وأنت أيها الامير فيها أول من استخار الله وسار،
وإن كانت دون الاسطول موانع إما من قلة عدده، أو من شغل هناك
بمهمة أو بمباشرة عدو إما تحصن منه العوره، أو قد لاحت منه الفرصة،
فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سييلها مسدودة، ولا انواعها محصورة ،
تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال ، وما رأينا أهلا لخطابنا ، ولا كفؤا
لانجادنا ، ومحقوقا بدعوتنا ، ولا ملبيا بنصرتنا إلا ذلك الجنب ، فلم
ندعه إلا لواجب عليه ، وإلى ما هو مستقل به ومطبق له ، فقد كانت
تتوقع منه همة تقدر في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس
في العدو القصوى شجرتها فينال من في العدو الدنيا جناها، فلا
ترضى همته أن يعين الكفر الكفر، ولا يعين الاسلام الاسلام ، وما
اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره، والجار أقدر على الجار ، وأهل
الجنة أولى بقتال أهل النار، ولأنه بحر ، والنجدة بحرية، ولا غرو ان
يجيش البحار البحار، وإن سئل عن المملوكين بوز با وقراقوش وذكر
مافعلا في اطراف المغرب بمن معها من نفايات الرجال الذين نفتهم
مقامات القتال ، فيعلمهم ان المملوكين ومن معها ليسوا من وجوه

الماليك والأمرء ، ولا من المعدودين في الطواشية والأولياء وانما كسدت سوقهما وتبعتهما ألاف أمثالهما ، والعادة جارية أن العساكر إذا طالت ذيوها ، وكثرت جموعها ، خرج منها وانضاف اليها ، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هذان المملوكان ممن إذا غاب أحضر ، ولا ممن إذا فقد افتقد ، ولا يقدر في مثلها أنه ممن يستطيع نكاية ، ولا يأتي بما يوجب شكوى من جنافية ، ومعاذ الله أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الارض ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وان سئل عن النوبة المصرية وما فعل بجندها ، فليعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكفار وأطمعوههم في تسليم الديار ، فأشفى الاسلام على أمر شديد ، وكاد يقرب على الكفار كل أمر بعيد ، فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين ، فقبلوا بما يجب ، وكانوا دعاة كفر وضلال ومحاربن لله بما سعوا في الارض من فساد ، فأما بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا فإنهم اقتصر بهم على أن لا يكونوا جندا ، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه وشملته أمنة تسكنه ، وأما الهدية المسيرة على يد الامير فتفصيلها يرد في كتاب الامير الاجل الاسفهلار العالم الكبير مجد الدين سيف الدولة ، أدام الله علوه ، مقرونا بالهدية المذكورة ، ومع قرب الشتاء فلم يبق الا الاستخارة والتسمية ، ومبادرة الوقت قبل أن يخلق البحر انفتاح الأشتية ، والله سبحانه يوفق الأمير ، ويسهل سبيله ، ويهدي دليله ، ويكلاه بعينه ، ويمده بعونه ، ويحمل رحله ، ويبلغه أهله ، ويشرح له صدره ، ويسر له امره إن شاء الله تعالى .

وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة

فصل

في نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهدية

العنوان :

بلاغ الى محل التقوى الطاهر، ومستقرّ حزب الله الظاهر من المغرب
أعلى به الله كلمة الايمان ، ورفع به منار البر والاحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب

أما بعد : فالحمد لله الماضي المشية، الماضي القضية ، البر بالبرية ،
الحفي بالحنفية ، الذي استعمل عليها من استعمر به الارض ، وأغنى
من أهلها من سأله القرض، وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة
والفرض، وزان سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض،
وصلى الله على سيدنا محمد الذي أنزل عليه كتابا فيه الشفاء والتبيان ،
وبنى الاسلام بأتمه التي شبهها صاحبها بالبيان ، وعلى آله وصحبه
الذين اصطفاهم وطهرهم ، فنصروه وظاهروا رسوله صلى الله عليه
وسلم فنصرهم وأظهرهم ، ويسر بهم السبيل ، ثم السبيل يسرهم ، وان
الله بهم (لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم) (١١٧) (ربنا اغفر لنا
ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا ربنا
انك رؤوف رحيم) (١١٨) وهذه التحية الطيبة الكريمة الصيبة، الواجبة
الرد، الموجبة للقصد، العذبة الورد، المتنفسة عن العنبر والورد، وقاده على
دار الملك ومدار النسك ، وجل الجلالة ، وأصل الاصاله ورأس
الرياسة، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلم العلم ، وقائم الدين
وقيمه، ومقدم الاسلام ومقدمه، ومقتضى دين الدين ومثبت المتقين على

اليقين ، ومعلي الموحدين على الملحددين ، أدام الله له النصره ، وجهز به تيسير العسرة ، ورد له الكرة وبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الالفه ، ومهد له درجات الغرفة ، وعرفه في كل مايعتزمه صنعا جزيلا جميلا ولطفًا حفيًا جليلا ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو (اشد وطئا وأقوم قيلا) (١١٩) ، تحية استنير منها الكتاب ، واستنيب عنها الجواب وقد حفز لها حافزان أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا إلى ان تيسر الاسباب ، والآخر مرام عظيم ماكره اذا استفتحت به الابواب ، وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبة هناة بفتح البيت المقدس ، وسكون الاسلام منه الى المقييل والمعرس ، ومافتح الله للاسلام من الثغور ، وماشرح لأهله من الصدور ، وماأنزله عليهم من النور ، ولم يخل المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر، وملاحظات أنوار ذلك البدر، ومطالعات تلك الجهة التي هي وان كانت غربية فإن الغرب مستودع الأنوار، وكنز دينار الشمس ، ومصعب أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار (ان في ذلك لعبرة لاولي الأبصار) (١٢٠) ولم تتأخر المكاتبة الا ليتم الله ما بدأ من فضله ، وليفتح بقية مالم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من الشام مدن وأمصار وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل وللاسلام معاقر، ولبنى الكفر مصانع، ولبنى الاسلام مصارع والباقي بيد الكفر منها ثغر طرابلس ، وصور ، ومدينة انطاكية يسر الله أمرها ، وفك من يد الكفر أسرها ، وإذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجي ايجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين ، بعد أن كسر العدو الكسرة التي لم يجبر بعدها، وألجىء الى حصونه التي للحصر أعدها، وكان يومها كريما ، ولطف الله فيها عظيما ، قبضت كل حاجة في النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدو بعد يومها ، فكأن لم يغن بالامس ، وكانت على أثر غزوات قبلها ، فما الظن بالمجهزة بعدالنكس ،

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فرع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب، فأجابوا رجالا وفرسانا، وشييا وشبانا ، وزرافات ووحدان ، وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا اليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه، ولا يحتاج الى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أفضلت العجمة على اسمائها ، واتت العزيمة بحمد الله على اشخاصها عند لقاءها، ومنهم ملك الالمان خرج في جموع برية من الله تعالى برية، ملأت الفجاج وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهم من ركب ثبج البحر فركب الاجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج ، لينصر ديننا مشبه الزجاج ، يقبل للكسر ولا يسرع اليه الجبر، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة والى قاع كفر، وجلب الكفار الى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب ما بين أقوات وأطعمة، وآلات وأسلحة وشكة وجنة، وحديد مضروب وزبرة ، ونقدي ذهب وفضة إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة وذخائر للعاجلة من حربهم والأجلة لاتشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ماأكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ووفور مادة، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعظاهم البحر مامنهم البر، وبطروا لما كثروا، ونظروا فإنهم لا يستطيعون أن يلقوا ويصحروا ويستطيعون أن يحصروا على ان ينحصروا ، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ، ويصل إلى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وازواده ، وبمن يكثربه من مقاتلته واجناده، فانقطعت مادة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر، فخذقوا على نفوسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم، وعقدت عدتهم مائة ألف أويزيدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون، فاتمنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها، فنفذت عمارتنا إلى الثغر، وأوصلت إليه الأقوات التي حمل منها البحر

مالايحمله الظهر، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر . ومالقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة ، فعدد سراكبهم كبيرا ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمه، والقليل مع العزم الصادق كثير، واستمر مقام العدو محاصراً للثغر محصوراً منا أشد الحصر ، لا يستطيع قتال الثغر، لانأمن خلفه ولا يستطيع الخروج الينا خوفاً من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول اليه لأنه قد سور وخندق وحاجز من وراء الحجرات وأغلق ، ولما خرج ملك الالمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد، قويت به نفوسهم وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا انه يزعجنا من نخيمنا ، ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية ، فسلك ذات الشمال ، متوعرا فيها محتجزاً عن لقاءها مظهراً أنه صريع داء ومابه غير دائها، وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شبيهة اللعن اللعين ، قائد جيشه إلى سجن سجين ، قد هلك في طريقه غرقاً، وخاض الماء فخاضه الماء شرقاً ، وبقي له ولد هو الآن المقدم المؤخر وقائد الجمع المكسر، وربما وصل بهم إلى عكا في البحر تيبباً ان يسلك البر، ولوسبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى انطاكية لأخذوه أخذاً سريعاً ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه لافي النهر سريعاً ، ولكن لله المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمشي إلى البلية، فإنه لولا احتجار مقيمهم بالخنادق، واحتياز واصلهم بالمضائق لكان لنا وهم شأن ، وكان ليومنا في النصر الكبرى بحول الله ثان لا يثنيه من العدو ثان ، ولما كانت حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعبي سلفه في الجهاد العزّ المحجلة له المؤمرة المؤملة الكاسفة لكل معضلة ، الكاشفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة ، والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمه ، والسير به معملة وعاملة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف في

اغماها ، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادها ، لا يزال في سبيل الله غاديا ورائحا ، ومواجهها ومكافحا ، ومما سياتي ومصابحا ، يجوز لجة البحر بالمجاهدين ملوكا على الأسرة ، وغزاة تصافح وجوهها السيوف ، فلا يحمد نور الاسرة بذود الفرق الكافرة ، ولو ترك سبيلها لملا قراره كل واد ، (كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله)^(١٢١) ولولاه لأخذ شرارة كل زناد . كان المتوقع من تلك الدولة العالية ، والعزمة الغادية مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الاسلام المسلمين بأكثر مما امد به غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام ، ومدنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بالأيام تطلع علينا معشر الاسلام امالا ، وتطلع على الكفار آجالا ، وتردنا إما جملة وإما أرسالا ، مسومة تمدها ملائكة مسومة ومعلمة ، تقدم حيازيمها إقدام حيزوم تحت أصحابه ، وإنما هي منه عزمه ، كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشامة ، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمة ، ولما استبطت ظن أنها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به في هذه التحية ، فقد تحفل السحاب ، ولا تمطر إلى أن تحركها أيدي الرياح ، وقد ينزل النصر فلا تظهر الى أن تضرع اليها السنة الصفاح ، وسير لحضور مجلسه الأطهر ومحله الأنور ، الأمير الاجل المجاهد الأمين الأصيل ، شمس الدين نور الاسلام والمسلمين ، سفير الملوك والسلاطين ، أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ ، كتب الله سلامته ، وأحسن صحابته ، وما اختير للوفادة إلا من هو اهلها ، ولا حمل الوديعة إلا من هو محلها ، ولا بعث لنهج الصلة إلا من هو مفتاحها ، ولأداء الامانة إلا من هو أهلها ، ومهما استوضح منه ، وسئل عنه ، فإنه على نفسه بصيرة ، ومن البيان ذو ذخيرة ، وفي العريية ذو بيت وعشيرة ، والمشاهدة له أوصف ، على أن تلك الجلالة ربما ذعرت البيان فأخلف ، وما أجدره بأن يصادف بسطة على بساطة ، ونظرا يأذن له في القول على اختصاره ، وتوسطه وافراطه ، فكل هو به واف ، وكل هو للفهم الكريم كاف ، والله تعالى يجعل هذه العزمة منا في استنهاض العزمة منه بالغة

مبلغا يسر أهل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا إلهًا من دونه ، والسلام الصادر عن القلب السليم ، والودّ الصميم ، والعهد الكريم ، على حضرة الكرم العلية ، وسدّة السيادة الجليلة ، سلام مودّة ما وفد الغرب قبلها مثلها ، ورسالة ماخطرت إلى أن انفذت وراءها المحبة رسلها ، وليصل السلام رحمة الله وبركاته ، ورضوانه وتحياته إن شاء الله تعالى.

وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسة ، والحمد لله وحده
وصلاته على سيدنا محمد نبيه واله وسلامه .

الهدية ختمة كريمة في ربعة مخيشة ، مسك ثلاثائة مثقال ، عنبر عشر
قلائد عددها ستائة حبة . عود في عشرة أمماء . دهان بلسان مائة درهم
واحدة . قسي بأوتارها مائة وقوسان . سروج عشرون . نصول سيوف
هندية عشرون . نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن
صندوقي خشب مجلدة سبعةائة سهم .

وكان اقلاعه من الاسكندرية في شيني عمارته مائة وعشرون . في ثالث
عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسة ، ووصل إلى طرابلس أوّل البلاد
في الخامس والعشرين من شوال ، وأقام بها إلى ذي القعدة ، وتوجه الى
البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ
أبي حفص ، ودفع كتاب السلطان اليه يوم الخميس سابع ذي الحجة ،
وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة ،
وفي هذا النهار حملت هدية السلطان إلى خزانته ، وكان انفصاله من
مراكش عاشر المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسة ، ووصل الى الاسكندرية
في الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين .

فصل

لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التمس منه من النجدة ، وبلغني أنه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمر المؤمنين على جاري عاداتهم ، وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للشريعة غازيا توفي في سنة خمس وتسعين ، وفيه يقول شاعره:

أهل لأن يسعى إليه ويرتجى
ويزار من أقصى البلاد على الوجا
ملك غدا بالمكرمات مقلدا
وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره
وتعطرت منه الريح تارجا
وجد الوجود وقد جرى فأضاه
وراءه في الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن عمه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها :

هبت بنصر كم الريح الأربع
وجرت بسعدكم النجوم الطلع
ان قيل من خير الخلائف كلها
فإليك يا يعقوب تومى الأصبع
ان كنت تتلو السابقين فانا
أنت المقدم والخلائف تبع

وقدمدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها:

سأشكر بحر إذا عباب قطعته
إلى بحر جود ما النعماء ساحل

إلى معدن التقوى إلى كعبة الهدى
إلى من سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المسلمين ولم تنزل
إلى بابك المأمول تزجي الرواحل
قطعت اليك البر والبحر موقنا
بأنى بذاك القطع بالنجح كافل
فما راعني من وجبة البررائع
ولا هالني من زاخر البحر هائل
ومن كان غايات المعالي طلابه
يهون عليه كل أمر يحاول
رجوت بقصديك العلى فبلغتها
وأدنى عطاياك العلى والفضائل
فلا زلت للعلياء والجود ثانيا
تبلغك الأيام ما أنت آمل

وابن منقذ هذا من أهل بيت أدب وشعر، وله على ما وجدت بخط
بعض الثقة :

تصرم عمري في التغرب والنوى
وأفنى ارتحالي طارفي وتلادي
وأخلقت الأيام بردي شبيبي
وأصلد من وقع الخطوب زنادي
وأشغلني الحرص الموكل في السورى
عن العمل المنجي ليوم معادي
فلا راحة الأخرى تيقنت نيلها
ولأنافي الدنيا بلغت مرادي

وله على لسان بعض غلمانه:

ورب قميص دعاني إلى احـ

تمال الرثاثة منه العدم

أقرب وجهي له كلما
تهلل لي ضاحكاً وابتسم

ومن كتاب فاضلي الى بعض اخوانه : « وأما الانخبار المغربية وإخلال جانبها ، وضعف مطلوبها وطالبها فإذا نجزت الظلماء الى المغرب فبحق، كما ان الانوار الناصرية قد تناصرت في الشرق ، فالله يسعد بلاد الدنيا بالانخراط في سلك ملكه ، ويمكن من مؤمنها حكم عدالته ومن كافرها سيف فتكته ، والله يجزيها الخير عن نيتها في الخير، ويكتب سلامة عزمها في طرق النفع أينما يمت السير».

ثم اني وقفت على كتاب فاضلي للسلطان يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأي الفاضل ، ولا هو مختار لها. صورته: «المملوك يقبل الارض بالمقام العالي المولوي الملكي الناصري ، جعل له الله في الدنيا والآخرة المقام العالي، وأبقى دولته التي هي الايام بالحقيقة والايام قبلها هي الليالي ، وينهي ان الظاهر ان المملوك عند المولى ليس من أهل الاتهام، وان له ولله الحمد اثارا في دولته تشهد بها الايام، واثار السيوف طاحت وبقيت اثار الاقلام، والرسالة المغربية ليس المملوك مشيراً بتركها، ولا كارها لسفر رسولها، ولا مستبعداً مصلحة قريية منها، لكن على وجهها ، وقد نجزت الهدية المغربية على ما أمر به، وكتب الكتاب على ما مثل ، وفخم الخطاب والوصف فوق العادة ، وبها لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه، وعند وصول الامير نجم الدين من المخيم المنصور فاوضه المملوك في أنه لا يمكن الا التعريض لا التصريح بما وقع له أنه لاتنجح الحاجة إلا به من لفظة أمير المؤمنين ، وأن الذين أفاضوا في هذا الحديث وأشاروا به ما قالوه نقلاً ، ولا احاطوا به قياساً ، ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديماً، وآخر ما كتب في أيام الصالح بن رزيك فخطوب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن وولي عهده بالامير الأصيل النجار، الجسيم الفخار ، وعادت الاجوبة الى ابن رزيك وهو وزير سلطان مصر الذي

اتباع مولانا اليوم مائة مثله، مترجمة بمعظم أمره ، وملتزم شكره ، هذا
والصالح يتوقع ان يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه ، وماهو الا ان
يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على أطراف بلاده، ويصل المشار
اليه بالامر من مراکش الى القيروان في ستة اشهر فيلقاهم فيكسرا مرة،
ويتماسكا أخرى، واعلم الامير نجم الدين بذلك فأمسك مقدار عشرة
أيام، ثم أنفذ الامير المذكور اليه على يد ابن الجليس بأن الهدية أشير
عليه بأن لا يستصحبها ، وان استصحبها تكون هدية برسم من حواليه،
وان الكتاب لا يأخذه الا بتصريح أمير المؤمنين ، وان السلطان عز نصره
رسم له ذلك ، والملك العادل دامت قدرته بأن لا يشير الا به ، وانه اذا
لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان ابقاه الله من لسانه
فأجاباه المملوك بأن الخطاب يكفي ، وطريق جحدنا له ممكن والكتابة
حجة تقيد اللسان عن الانكار ، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب
جعلنا خالعين في مكان الاجماع ، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة
فيه، ولا يجل اتباعه، مرخصين الغالي ، منحطين عن العالي ، شاقين عصا
المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لا تحل طاعته، متقلدين لمن
لا تصح ولايته، ففسد عقود الاسلام وينفتح باب يعجز وارده عن
اصدار ، بل تمضي وتستشف الامور وتكشف الاحوال، فان رأيت للقوم
شوكة ولنا زبده، فعدهم بهذه المخاطبة ، واجعل كل مانأخذه ثمنا للوعد
بها خاصة ، فامتنع وقال: أنا أقضي اشغالي وأتوجه إلى الاسكندرية
وانتظر جواب السلطان عز نصره ، وما يفوت وقت وإلى أن أنجز أمر
المركب ، وارتاد الركاب فسير المملوك النسخة وان وافقت فينعم المولى
على المملوك بترجمة يلصقها على ما كتبه، ويأمر نجم الدين بتسلم
الكتاب، على ان ابن الجليس حدثه عنه انه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة
بها، فأما الذي يترجم به المولى عز نصره فيكون مثل الذي يدعى به على
المنبر لمولانا وهو: الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب، أدام الله غنى
مولانا بالفقر الى ربه، واذا كتب الصالح ابن رزيك اليهم من السيد

الأجل الملك الصالح قبح ان يكتب اليه مولانا أبقاه الله «الخادم» وهذا مبلغ رأي المملوك ، والمؤمن لا يذل نفسه، وقاسم الارزاق يوصلها وان رغم من جرت على يده ، وان كان مولانا أعز الله نصره يقول: أنت غافل وغائب، وماتعرف ما الاسلام فيه ، فلو حضرت وعرفت ماشقت الحديث ، فجواب ماتكتب: بعد سنتين فما يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسيء الظن بالله ، واذا كانت لنا إن شاء الله أخذت خالية ممن نطلب الآن مواساته، واذا كان المملوك مستجهلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها . والأحوال المملوك غائب عنها ، فالمفهوم من الأمر أن يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد ، وتحرير الالفاظ ، وتنضيد الخبر عما اجراه الله تعالى على يد مولانا عز نصره ، والثاني المطلوب فقد فعل هذا كله في النسخة ، وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها، والمملوك وعقبه مستجرون بالله تعالى ثم بالسلطان عز نصره من تعريضهم لكدر الحياة وتوقع الخوف ومعاداة من لا يخفى عنه خبر ولا تقال به عثرة، ويكفي ان المولى انعم بخطه في كتابه الى المملوك ، وفيها ما هو بخط حضرة سيدنا الاجل عماد الدين الكاتب الاصفهاني حرسه الله تعالى لما وصى بأن لا يناظر في الخطاب ماصرح باللفظة، فهي اما تقية فالمملوك اولى بها، واما استهانة فنفس الملك لا تقاس بنفس المملوك ، فان كان ولا بد فالنسخة بين يديه، والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج الى تعليم ، والكتاب الذين يستقلون بكتابة النسخة معدومون، وقد ناب المملوك عنهم، والكتاب الذين يستقلون بالتبويض موجودون فينوبون عن المملوك في التبويض ، والافكييف يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان ، وبغير حضرته كتب ولا بهديه سار، وبمحضر من البغاددة والمغاربة يعلمون أن الكتاب كتب بهصر ، ويشهدون بما لم يروه ومالم يقرؤة من الخطاب ، ولو وصل من المولى ادم الله أيامه كتا . محتوم وسير ولم يعلم ما فيه لانقطع فضول كثير وحمدت أراجيف شنيعة، ولا يعتقد المولى أن المملوك يعظم القصص فما للألسنة والاعين

شغل إلآ السلاطين وأفعالهم واقوالهم ، ولا للخلق خوض إلا في
أوامرهم وأحوالهم، ولو علم المملوك أن هذا الذي استعفى منه يضره
بحيث ينفع المولى أبقاه الله لهان عليه، ولكنه مضرّة بغير منفعة ،
وتعرّض لما تدم عاقبته، أو يبقى على الخوف منه ، وذلك مما لا يقتضيه
حسن عهد المولى، وفضل رأفته فمقصود المولى ابقاه الله تحصيل تبييضها
بين يديه ، وربما حصل استنارة، وامنت المكاره فيه، وغمضت العيون
عنه وشحت الأيام عليه، طالع المملوك بذلك».

فصل

وللفاضلي الفاضل رحمه الله من كتب أخر ما يشرح لنا بعض ما تقدم ،
ومالم يذكره أحد من أرباب السير منها قوله: «كتاب بغداد كتاب بارد،
غث جامد، مافيه مقصود لقاصد ، ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب
الذهب الحار فيضرب في حديد بارد» ومنها فيما خرب من البلاد
الفرنجية المغنومة: «خراب البلاد في هذا الوقت الضيق لاشبهة في تقويته
لنفس العدو واضعافه لأنفس المسلمين ، وكان من يسمعه يفجأه من
بديهة اليأس ما يقطع وجأه. المولى يعلم أن العدو أخذها من المصريين في
تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرة وبالهدنة مرة أخرى وبالقتال
مرات، وبولاة سوء لو كان فيهم خيرا لما عجزوا عنها ، ونحن قد حملنا
عن العدو المؤنة بتخريب البلاد التي كان العدو يريد أن يحاصرها
وينزلها، وينصب المنجنيق والبرج عليها، ويخاف النجدة أن تصلها، وقوة
الاسلام أن تثوب اليها، ويتوقع أن ييدهه المصاف قبل النزول عليها ،
فعرّفناه أنه قادم على من لاسلاح له إلا أن يلقي السلاح، ولاحفظ للبلاد
إلا أن يخرجها ، فقد نكلنا عن اللقاء ، وفررنا قبل المواجهة، وزدنا زيادة
عجيبة وهو أن المنهزم ينهزم بالرجال ونحن ننهزم بالبلاد» ثم قال:
«وثبوت مولانا على عكا هو حراستها وحفظها وقوة نفس من بها، وأهون
الاعداء ملك الألمان لايشك مولانا أن جمعه لايفي بعشر قراقر من ستين
قرقورة وصلت الى الفرنج نجدة من بلاد المجوس في السنة الماضية ،
وانما الزائد سمعة ملك وقد هلك ، ورأس قد قطع، وقائد جيش وقد
كبا كالجبال

ومنها من، ورود كتاب السلطان إليه يبشر بعافيته من مرض عرض له
في شهر رمضان: «أسفرت بشارته عن أن المولى آتاه الفرج وغذاؤه
الفروج، واستقل بحمد الله، وصح وقالت العافية: للمرض تنح، وكان
مافي كتابيه الأولين من تعريق النون من الحمد لله رب العالمين فيه أثر

ضعف ينتقده صياغة الخطوط ، فأما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريقة ، وقويت اليد وطلعت النون أهم اليانا من مطلع الهلال الفطري الذي يشبهه الشعراء بالنون ومنهم من قال:

ولاح هلال مثل نون أجادها
يدوب النصار الكاتب ابن هلال

وهذا من أنواع الفراغ الذي ما أوجبه المملوك الا لمستره بعافية المولى أدامها الله، وأدام المسرة بها له وللخلق فما يشبهها المملوك إلا بنور الشمس الذي له في كل مكان أثر، ولكل عين به نظر، فلا أخلى الله الدنيا من اثاره والعيون من أنواره ، وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عافيته به من المرض الذي هو العدو ، فيجمع الله تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين ، ويستخدم شكرهم للنعمتين ، فقد جلا الله بهذا المرض سيف الله الذي هو المولى وما صقله إلا لتصداً به قلوب أعدائه ، ومن فوائده هذا المرض أن المولى يستأنف العمر جديداً والعزم حديداً، ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر، واعضاء قد فارقها ما كان سبب الضجر»

ومنها: «وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه فلا أخلى الله مولانا من القدرة عليها ، وهنيئاً له أن الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي صلى الله عليه وسلم يطالبه بحسن الخلافة في أمته، والسلف الصالح من هذه الامة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على ما يفعله المولى، وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد، وبقية الأمة تطالبه بالأمن في سربهم، والاستقامة في كسبهم والخفارة في سبلهم، ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه الله اليها ، ولمعالي الأمور أعانه الله عليها، وإذا عدّد ما يراود منه فلا بد أن يعدّد ما يسر عليه فهل عدم من الله تعالى قط نصره، وهل استمرت به قط عسرة ، وهل تمت

لعدو قط عليه كره، وهل بات قط إلا راجيا، وهل أصبح إلا راضيا ،
ألا يعلم أن الله تعالى ذخر له من الصالحات ما لم ير كفوا له غيره، ألا
يحصي من سبقه من الملوك إلى الدنيا فعجزوا عما سبق إليه المولى من
الأخرة ، وهل تعرف راية قاتل تحتها في سبيل الله إلا رايته، وهل يعرف
مال ينفق في سبيل الله إلا ماله ، وهل يسمع في مجلسه إلا كتاب الله
يتلى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقرأ ، أو يرى به إلا الخيل
تعرض، والسلاح يقلب، لا أقداح الشارين ، ولا أصوات المغنين ، ولا
وقائع الكذابين ، ولا سعايات النمامين ، ويحرق إذا توافر حظ مولانا أبقاه
الله على تشبيهه الملوك ، فإذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فإن
مجلسه أولى بأن يكون مسجداً من كل مسجد، ولا غرو أن تعترف
المدائح كما تعترف الضوال ، وان تتبع كما تتبع الطرائد، (ولينصرن الله
من ينصره) (١٢٢)

لعل المولى عز نصره قد نفذ إلى جانب الشمال جماعة فإن صاحب
أنطاكية خذلة الله عاث وشعث، وخلا الجبان بأرض فطلب الطعن
وحده، لو قرن أهل عكا—وكذلك يفعلون— بمشيئة الله ما هم فيه من
جهاد بنية احتساب لما سبقهم إلى الجنة سابق ولا لحقهم بعدهم لاحق،
فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حال، فله ثواب نفسه و ثواب من جاهد
بسببه ، فلا أعدم الله الخلق واحدا به استقام جميعهم، ومالكا قام
برعاياهم فأقعد ما يروعهم ، وشفيقا يقيهم بنفسه وبولده وبأخوته،
ويتقدم إلى الأهوال امام مماليكه وأمرائه وعسكره وجملته كأنه منهم
مكان بسم الله من الكتاب، ومكان الامام من المحراب، ومكان
النواصي من وجوه الصاهل، ومكان الأسنه من وجوه الذوايل، وخير
ماكان اذا لم تظن نفس بنفس خيرا ، وأغير ماكان على محارم الله إذا
كانت أنفوس الملوك غير غيرى، وقد اطمأنت القلوب إلى أن الله سبحانه
قد كشف الغمة وفرجها ، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو قد أجمجها ،
فما يتوقع من كتب مولانا أبقاه الله إلا ان الاسلام قد رضي بها يسخط

الكفر، ولا يسمع من قصصه الذي هو أحسن القصص إلا أن يقول ما قاله سميه على نبينا وعلية السلام (قضي الأمر) (١٢٣) فأما ملك الألمان فقد سلبه الله ما أضيف إليه كما كان المملوك رأى في منامه على كوكب، واعلم به مولانا في ضمن رسالة فقال ابقاه الله قد قبلت البشرية، وصورة الرؤيا أن رسولا جاء من السلطان عز نصره إلى المملوك فقال: أكتب كتابا ببشارة ملك الألمان، فقلت حتى أفكر، فقال الرسول اكتب بأن الله قد سلب ملك الألمان ما أضيف إليه، والمشهور ان ملك الالمان خرج في مائتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة الاف».

ومنها: «ورد كتاب من المهديّة إلى الاسكندرية ثاني رجب بعد ستة عشر يوما من المهديّة، وذكر من فيه أخبارا، وقد طوع بها، ولما تكررت علمت صحتها، وهو أن عساكر الغرب الاسلاميّة نازلة على طليطلة، وقد افتتحت عدّة حصون كافرة، وأن بوزبا شوهد بالمهديّة موثقا بالحديد وقد نفذه قراقوش الى صاحب تونس ليسيّره إلى بلاد الاندلس، موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر، وأن أهل صقلية من المسلمين إلى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فرنجها ومعتصمون بالجبال في أعمالها، وأن عسكر الفرنج قد خرج لانجاء أصحابهم بصقلية، والمسلمون بها على توقع ورقبة وحذار وخيفة، نصر الله كلمة التوحيد، وأهلك كل جبار عنيد، وان مراكب فيها أزواد للجنويين دخلت المهديّة بأمان من صاحبها، فباعت بها وتزودت منها، وانها قاصدة الشام خيب الله قصدها»

ومنها «وقد سير الحمل الآن من المجلس العزيزي بحضور فلان وفلان وكلهم مجتهد في الخدمة، ولما عرف المملوك انهم لا يطرقون المعنى الذي يطرقه المملوك من تنبيه مولانا على أن يقتصد في الانفاق، ويقدر الاخراج للعلم أن هذا الحجر قد رمينا بعدمه، وسمع بخبر المولى فإنهم فرارا من سطوة كرمه، والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع اسفارها،

ووقوف معائشها، وكساد أسواقها، وانكسار تجارتها، ولولم تكن الدراهم سلعة لا تخرج من مصر كما يخرج الدينار، لما وجدت كما يوجد الدينار، وإن تصريف الدراهم بعد أن يصير مستخرجاً بذهب شغل شاغل، واستخراج ثان غير الأول، وعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده يحدث للإسلام نصراً عزيزاً، وللکفر خذلاناً سريعاً وجيزاً.

مولانا خلد الله ملكه من وراء ضرورة لا تخفى عن المملوك، والماليك من وراء ضرورة لا تخفى عن المولى وصدر المولى بحمد الله واسع وفرج الله منه قريب، وهذه الضائقة لما يريد الله تعالى من حسن موقع الفرج بعدها، فقد انفق المولى مال مصر في فتح الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل، وينفق ان شاء الله تعالى مال القسطنطينية في فتح رومية، والمملوك كلهم وكلاؤه وأمنائه على خزائنهم إلى أن يسلموها إليه فيشكره الله على ما أخرجه في سبيل الله منها، ويمقتهم على ما كنزوه من ذهبها وفضتها، فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقه، فإن الله سبحانه لا يضيق رزقا على يده الكريمة، لاسيما وقد أجرى عليها أرزاق خلقه»

ومنها «ينهي المملوك وصول رسول ملك الروم بما في صحبته من هدية، وبما على لسانه من رسالة، وبما على يده من كتاب، وحضر بين يدي الملك العادل وجرى من المفاوضة ما زبدته امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية، وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقة على حرب السلطان، وإطلاق طريقهم، وامتنع وسدّ الدربندات، وحفظ عليهم الطرق، ووصى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنع دونهم، وجعل موافقته أن البلاد في هذه السنة غالية السعر، والمصلحة تقتضي أن لا تكون الحركة إلا بقوة وعلى تمكن من الميرة وتأخير الحركة الى السنة الاخرى» ثم قال: «وهذا ملك الروم خائف من الفرنج على بلده، مدافع عن نفسه إن تم له الدفع ادعى انه بسببنا، وان لم يتم

ادعى انه غائب عن مقصده ومقصدنا، وقد جعل ما اورده من أن يقال ان البطاركة في قمامة من قبله، وان ينقل من ولاية الفرنج الى ان يوليها الطاغية من أهل عمله سببا ييسط به عذره بزعمه عند أهل جنسه ، ويدفع به عن نفسه لاسيما مع إقامة الخطبة الاسلامية ، ونقله المنبر وفسحته في الصلاة واعزاز الكلمة الاسلامية ، أرغم الله بها أنفه، وعجل بسيفها حتفه، ومولانا ابقاه الله يتثبت في الاجوبة ، ولا يجيب الى ما على الاسلام فيه غضاضة ، ولا الى ما للكفر فيه قوة (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) (١٢٤).

ومن كتاب آخر: « وصل إلى المملوك كتاب يذكر وصول رسل الملك العتيق من قبرس اليه يخبره بعصيانه على ملك انكلتيز ومكاشفته بالعداوة والحرب وانه قد كاتب السلطان أعز الله نصره يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك انكلتيز ، والاخبار متواترة بأن الملك العتيق أحرق مواني قبرس ووعرها وقطع الميرة عن الساحل ، ولا شبهة ان مولانا يتقبل من المذكور ويقوي نفسه على هذه المباينة فان في تخاذلهم نصره الاسلام وشغل بعضهم ببعض وافتراق كلمتهم المجتمعة ، وقطعا للميرة عن الشام وامنا لجانب كثير من جوانب البحر ، وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديق، وماسمي العتيق إلا لانه صار لمولانا عتيقا، ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية في انا ننجده على قبرس، فانا انا وعدنا بالنجدة عليها لما كانت بيد عدونا ، والله ما أفلح ملك الروم قط، ولا نفع ان يكون صديقا ، ولا ضرر ان يكون عدوا ، وكذلك صاحب الغرب ، والله يعصمك من الناس.

وقف المملوك على كتاب بغداد والمقصود الذي ندب لأجله الرسول ما ألم بذكره في الكتاب وهي المعونة على الجهاد ، وعرف استدعاء المساعدة على تكريت، ولو كان لنا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها لانها مهها بقيت في يد من هو الآن بها لكانت في يد المولى أبقاه الله

تعالى، ومهما خرجت عنه خرجت عنها، وما نقول انه ليس لنا تطلع الى مثلها لاسيما وهي طريق الى غيرها، وقد فتح الله للمولى ببلاد هي مع سعتها ضيقة عن ربوتها، فللمولى أولاد كثير الله منهم، مامنهم الا من هو متطلع الى طرف، وله اهل مامنهم الا من هو متطلع الى مملكة، وأمراء مامنهم الا من هو متوقع زيادة، وممالك مامنهم الا من يريد ان يوفى الحق عليه في الخدمة، ومن سيرة المولى لهذا الأمر عدم من أصحابه منفعة فيما هو أهم مما سار فيه، وما يليق ان يسير الا من يريهم ما يعجزون عنه، ويكون عنوانا لما لعلمهم في شك منه من قوة المولى على ما يريد، وامساكه مع القدرة، ويرى المملوك ان مطلبهم نقد، ومطلبنا منهم وعد، وان كان ولا بد من تسيير فلا يسير الا من يقضي الشغل، ويستريد الجعل.

ما تضمنه الكتاب البغدادي من عزم الخليفة على الحج في هذه السنة المملوك يستبعده، بالاضافة الى الوقت والى عادة أهله آخرهم حجا الرشيد رحمه الله، ويستقر به بالاضافة الى خلته، وان سار صلح ان يهتم بها اشار اليه ابن الشهرزوري، ولا شك انه قد أنسي الرسالة التي توجه فيها، فإننا بعثاه يلتبس لنا نفقة فالتمسها منا.

وكتب الفاضل الى السلطان: « ينهي المملوك انه عرف تسحب رجل وصبي من القصر الغربي، وان المؤيد، يعني ابن السلطان، وكان ينوب عن اخيه العزيز بمصر، حضر نائبه الطواشي بهاء الدين واستعلم أمرهما فذكر أن هرهبها صحيح وأن أحدهما وهو الصبي من جملة ثلاثة وثلاثين ولدا كانوا اطفالا وقت الحوطة عليهم بالقصر الغربي، وقد بلغ هذا وكبر وزاحم عشرين سنة، والآخر كان معتقلا في الايوان فحدث له خنازير في حلقه، وأشفى على الهلاك فأمر الطواشي بنقله الى القصر الغربي من الايوان وفك حديدته، وحمل ليتداوى في اوائل سنة ثلاث وثمانين، واستمر مرضه واشتد ضعفه وبقي في القصر الغربي الى ان علم انه

تسحب فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربي، فذكر أستاذين كان الطواشي اقامهما ورضي امانتهما وانها يذكران ان هذا القصر الغربي قد خرب ودثر، واكثرت التسليقات عليه ، ويجاوره اصطبيلات فيها جماعة من الخربندية والمفسدين، والتطرق مستمر من هذه الاصطبيلات الى من في القصر من النساء، وأنها كانا أنهما مرة بعد اخرى أن المكان غير حريز، والاعتقال فيه غير وثيق ، قال: وجمعت اصحاب الارباع وجيرة القصر ، ورجوت بترك الشناعة الظفرة بهما، والبحث واقع عنهما».

وكتب الفاضل عن السلطان الى العادل وهو بمصر: « انتهى اليينا بالديار المصرية ، وبالخضرة العلية، أن جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف ، وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ما أطاعوا فيه القوى الغضبية ، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حمية الجاهلية ، والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعة مطيعا: (واعتصموا بحبل الله جميعا) (١٢٥) ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنها ، وما علمنا أن في ذلك نية تنجد، ولا مصلحة توجد، ولا هداية تعتقد، بدراسة تعتقد ، ونار عداوة توقد، وقلما اثمرت المشاجرة الا خلفاء، فالمجلس أعزه الله يوعز بكف الألسنة الخائضه، وعقل الأعنة الراكضة، فإن أقنع بلطفه المرضي والا كانت همته الرائضة ، ومن عاد بعد الزاجر أبعد عن مستقره ، وأزعج ، وليسع الخلف ماوسع السلف من الادب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتابا الى ربه فليفكر فيما كتب ولى من كتب».

فصل

في ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللقاء ووصولهم الى رأس الماء

قال العماد: وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال مع ملك الالمان وخرج معهم المركيس ، والكندھري ، واخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها ، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادهما، وكان نخيم اليزك على تل العياضية فركبوا واشغلوا القوم بنيران النصال، وأهلبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا قد حفرناها عند نزولنا هناك ، وباتوا ترميهم وتشويهم وتصميهم الاتراك، وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين الى اللقاء ورفع السلطان تلك الليلة الثقل الى ناحية القيمون ، وقد امتدت ميمته الى الجبل صفا ، وميسرته الى البحر زحفا، وعنده في يمين قلبه أولاده: الافضل، والظاهر، وأخوه العادل في أول الميمنة ، ويليه حسام الدين بن لاجين، ثم صارم الدين قايياز النحمي، ثم حسام الدين بشاره ومعه بدر الدين دلدرم الياروقي، فهولاء عطاء دولته وكبراء مملكته ، ومعهم امراء ومقدمون جريئون مقدمون وكان في الميمنة ايضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جرديك النوري وعلى ميسرته صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة وتقي الدين، وابن المشطوب سيف الدين، وخشترين والامراء الهكارية والحميدية والزرزارية والمهرانية، وأمراء القبائل من الاكراد، ورجال الحلقة الخاصة واقفون في القلب، وضرب للسلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف، وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر، فانحرفوا الى غربي النهر ، ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا ، فأنهض السلطان اليهم الجاليشية وانتظر من الله في كسرهم المشيه فاستداروا بمركزهم واثخنوا فيهم اللتوت رضا ، وبالديبايس قضا ، وبالنصال قرضا، وبالاسنة وخزا ووحضا، وقضوا فيهم من حق الجهاد

سنة وفرضا، وكان المراد ان يجتمعا فيثوروا حتى يلقاهم ويبوروا ، فماراموا
مكانهم واصبحوا يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين ، ووقفوا
على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل محقق بهم كالأسوار
وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ، وارادوا يياسطونهم ،
والسلطان يمد الرماة بالرماة ، والكماة بالكماة ، وهم ثابتون نابتون،
ساكنون ساكتون، ونحن نقول لعلمهم يحملون ويغضبون فيجهلون
فتتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم ، وتفريق جماعتهم ، وأحس العدو
بالضعف وانه متورط في الختف ، فالجئوا لعجزهم عن الدفاع الى
الاندفاع ، وساروا عائدين على هيئة الاجتماع ، والنهر عن يمينهم ،
والبحر عن يسارهم ، وقد أيقنوا إن صح منهم الثبات بانكسارهم ،
واصحابنا حوالهم ومن ورائهم ، يغرقونهم في دمائهم ، ويشلونهم
ويقلونهم وينهلونهم من ماء الحديد ويعلونهم ، هم يتحركون في سكون
ويتظاهرون في كمون ، ويتذوبون في جمود ويتلهبون في خمود، وكلما
صرع منهم قتيل حملوه وستروه، وطموا مدفنه وطمروه حتى يخفى أمرهم
ولا يصح لدينا كسرهم ، ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق ، وقطعوا
الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في
الجهاد بلاء حسنا، وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا ، وبذل إياز
الطويل هذا اليوم جهده، وفل في هذا اليوم حدهم حده ، وكذلك سيف
الدين يازكوج عام في بحرهم وقام بأمرهم ، واصبحوا يوم الخميس الى
نار الوطيس ، ووصلوا الى مريضهم ولم يحصلوا على غرضهم ، ونقص
منهم خلق ، وعدنا الى الخيام ظافرين ظفر الكرام ، فرحين بذل الكفر
وعز الاسلام ، وعرف الفرنج مساق خزيم ، واخفاق سعيهم ، فاحترزوا
من الهلكة وماعادوا الى مثل هذه الحركة.

قال القاضي وكانوا قد جعلوا راجلهم سورا لهم يضرب الناس
بالزنبورك والنشاب حتى لا يترك احدا يصل اليهم الا بالنشاب ، فإنه
كان يطير عليهم كالجراد ، وخیالتهم يسرون في وسطهم بحيث لم يظهر

منهم أحد في ذلك اليوم أصلاً، وعلم العدو مرتفع على عجلة وهو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال، وهم يدنون من العلم وهو عال جدا كالمنارة، خرقة بيضاء ملمع بحمرة على شكل الصليبان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهر إلى قبالة جسر دعوق، وقد أجمعهم العطش من شدة الحر ، وأخذ منهم وأثختهم الجراح، وكان الفعل معظمه للحلقة المنصورة في ذلك اليوم فإنهم أذاقوهم طعم الموت، و جرح منهم جماعة كاياز الطويل، فإنه قام في ذلك اليوم أعظم مقام يحكي عن الاوائل، وجرح جراحات متعددة وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجاعانه ، وله مقامات متعددة، وجرح خلق كثير في ذلك اليوم ، وعزم السلطان في تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم وكتب الى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب، فلم يصل من أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب، فلما أصبحوا كف السلطان الناس عن القتال خشية ان يغتالوا فإن العدو كان قد قرب من خيمه ووقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الى مخيمه، وكان لهم فيها اطلاب مستريجة فخرجت على اليزك الاسلامي وحملت عليهم، وانتشب القتال بينهم ، فقتل من العدو وجرح خلق كثير منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم ، وكان على حصان عظيم ملبس بالزردي الى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد ، وعاد السلطان الى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم الى منزلتهم، وكان عماد الدين زنكي غائبا بنفسه مع الثقل لمرض كان به، وبقي عسكره فعاد وقد اقلعت حماه وبقي الثياث مزاج السلطان وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة، لكونه لم يقدر على مباشرة الأمر بنفسه، ولقد رأته رحمه الله وهو يبكي في حال الحرب ، كيف لم يقدر على مباشرة القوم،

ورأيته وهو يأمر أولاده واحداً بعد واحد بمصافحة الأمر ، ومخالطة الحرب، ولقد سمعت منه، وقائلاً يقول: إن الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين فأنشده تمثلاً :
أقتلاني وممالكا

واقتل ممالكا معي (١٢٦)

يريد بذلك انني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الاسلامية ، وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة ، منضماً الى كثرتهم ، وشدة الغلاء والجذب عليهم .

فصل

في وقعة الكمين وغيرها ودخول البدل الى عكا

قال العماد: لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدّه، وكثّر لهم العدّة ، وأمرهم أن يكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدو بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل ، فكمنوا تلك الليلة ، فلما أصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة وساروا نحو الفرنج وصالوا عليهم وأغاروا ، فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم اربعمائة فارس ، هكذا قال العماد في البرق — وقال في الفتح مائتا قنطاري، وكذا قال ابن شداد مائتا فارس — وطمعوا في المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين ، فخرج عليهم أسد العرين ، وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم ، فلم ينج منهم ناج ، ووقع في الاسر مقدمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيية ، وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ووقف على تل كيسان وقد توافقت إليه الاسرى والأسلاب فترك الأسلاب والخيول لأخذها، وكانت مقومة بأموال عظيمة ، فما أعارها طرفا ولا تردد أمره فيها، وجلس وأحضر الأسرى وبأسطهم وأطعمهم وكساهم واذن لهم في أن يسيروا غلماهم لاحضار ما يريدون احضاره ، ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال، وحفظهم بالقيود الثقال.

قال القاضي ابن شداد : ولما هجم الشتاء وهاج البحر ، وأمن العدو من أن يضرب مصاف وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العودة الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة، فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشري شوال وعقيبية ابن اخيه صاحب الجزيرة بعد ان افيض عليها من التشريف والانعام والتحف ما يُرْ ينعم به على غيرهما ، وسار علاء الدين

ابن صاحب الموصل في أول ذي القعدة مشرفا مكرما ، وسار الظاهر في المحرم سنة سبع ، وتقي الدين في صفر منها ، ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة.

قال العماد: واشتغل السلطان بادخال البديل الى عكا وحمل المير والذخائر ، وأخرج من كان بها من الأمراء لعظم شكائتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البديل الداخل من الأمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرم سنة سبع ، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبوالهيچاء وأصحابه، ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خلق من الامراء وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل واحد ان يصحب معه ميرة سنة كاملة ، وانتقل العادل بعسكره الى حيفا على شاطئ النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب وتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج إليه، فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس المير والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يتعرضها، وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب المينا فانقلب كل من في البلد من المقاتلة الى جانب البحر لتلقي البطس وأخذ ما فيها، ولما علم العدو انقلاب المقاتلة الى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم ، كما شاء الله تعالى ، وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هيجانا عظيما وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من

ذلك وهن عظيم ، وخرج السلطان لذلك حرجا شديدا ، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد.

وقال العماد: لما دخل الشتاء وعصفت الالهواء ووقع في سفن الفرنج الكسر انفذوها الى الجزائر للاحتياط ، وخافوا عليها من اختباط البحر.

وقال في الفتح: نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها ، فخلا وجه البحر من مراكبهم ، وحصل الامن فيه من جانبهم ، وكان اصحابنا في البلد قد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم وكانوا زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندي واسطولي وبحري ومتعيش وتاجر وبطال وغلما نوناب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج ، فرأى السلطان ان يفسح لهم فيه رفقا بهم ورأفة ، وما أفكر ان في ذلك مخافة وآفة ، وأشير على السلطان بترتيب البديل وتكفل العادل بذلك وانتقل بمخيمه الى سفح جبل حيفا قاطع النهر ، وتقدم بجمع السفن للنقل واجتمع المنتقلون بالساحل على الرمل ، فمن نجز أمره انتقل ، وكان الرأي ازالة علة المقيمين فإنهم قد جربوا وصبروا وخبروا وهم كنفس واحدة وكانوا في ثروة وكرم ونخوة ، وفيهم أبوالهيجاء السمين ، وله أتباع وأشياع ، وله في شرع السماحة اقتداء بالسلطان وأوضاع ، ولعله انفق من ماله في تلك السنة خمسين ألف دينار ، فلما فسح لهم في الانتقال لأجل الاستبدال انتشر ذلك الضم ، وانتشر ذلك النظم ، ودخل الى عكا من لم يجرب حصارها ، ولم يخبر منافعها ومضارها ، وما ثبت ممن كان مقميا بها إلا الأمير بهاء الدين قراقوش ، ودخل عشرون مقدا وأميراً شبه المكرهين ، عوض ستين ، واستخدمت الرجال وانفقت الأموال ، وتفاوت الداخلون والخارجون ، فلا جرم وقع الوهن ، وقضي الامر ، وتكفل بالداخلين المشطوب ، وضاع الزمان وتعذر الامكان بعود مراكب العدو ، فلم يستتم البلد ما كان يحتاج اليه من الرجال والاموال ، فان كل من عين للدخول

كرهه وضار يتوسل في ان يعفى ويبذل في نفسه الفداء ، ثم اا حقت
كلمة الدخول على من تعين له استمهلوا زمانا يتهيأون فيه للدخول
ولإنفاذ قضاء الله تعالى أسباب لابد من وقوعها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وفي ليلة سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا، فانثلم الثغر، وبادر الفرنجة إليها فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وقاتلوا عنها إلى أن بنوها، وعادت أقوى مما كانت.

وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان، وكندكبير، يقال له كند بنياط، وممرض الكندهري وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان، وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا عظيما، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم تبق خيمة إلا اشتعل فيها النيران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نارا تقد، وحصل للمسلمين غنائم أخرى كثيرة في سرايا سرية، وأساطيل بحرية، ومن جملة ذلك ملوطة، مكللة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجوهر مربوطة، قيل إنها من ثياب ملك الألمان، وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا، وهو المركب الصغير، فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسرهم وكبسوهم وأحضرهم بين يدي السلطان، فأعطاهم السلطان جميع ماغنموه.

قال العماد: فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم واحضروا مائدة فضة عظيمة، عليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن، ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطارا، فما أعارها السلطان طرفه احتقارا.

قال: واستشهد في عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار الدين، والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر، فأحرقت للكفر شواني برجها، وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه الامير جمال الدين محمد بن ارككز، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه الى الماء، وسلموه الى البلاء، فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان فقال: ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم الكبير، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير، فجاء اليه المقدم الكبير، وظن أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه وقوي عليه وبافارقه ووقعا في البحر وغرقا، وترافقا في الحمام واتفقا، وعلى طريقي الجنة والنار افترقا، واستشهد أيضا الأمير نصير الحميدي.

قال: وفي تاسع جمادى الأول قتل القاضي المرتضى بن قريش الكاتب في خيمته، قتله شريك له في دار بنا بلس أراده على بيعها، وخرج من خيمته فوجد قاضي نابلس فقتله، وضربه وما أمهله، ومر لينجو فأدرك، وضرب بعمود خيمة فأهلك، واستكتب السلطان اخا المستشهد مكانه، فلم يبلغ في الاحسان ميدانه.

قال: وفي هذه السنة ورد كتاب سيف الاسلام اخي السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها.

قال: ووصل القاضي الفاضل من مصر الى المعسكر المنصور في ذي الحجة، وكان السلطان متشوقا لقدمه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين، على ان امور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هبة ومحبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على احسانه، والى اركانه فان استقدمه خاف على ماوراءه من المهام، وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام، وكان يكتبه بشرح الاحوال يستشيره والنجا بون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات، والاستشارة في المهمات، فوصل الى القدس واعتاق بتوالي

الامطار ، ثم وصل في ذي الحجة ، ورجع الفضل ، واجتمع الشمل ،
واستأنس الملك بصاحب تديره ، وتأسس ركنه برأي مشيره .

قلت: وفي جمادى الاولى من هذه السنة توفي بالموصل قاضي القضاة
محيي الدين ابو محمد بن قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري ، وقد
اثنى العماد الكاتب عليه في الخريدة ثناء كثيرا وانشد له اشعارا حسنة
منها في التوحيد:

قامت باثبات الصفات أدلة
قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت
هزمت ذوي التشبيه والتمثيل
فالحق ما صرنا إليه جميعنا
بأدلة الاحبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد
ألقاه فرط الجهل في التضليل

وله في مدح الصحابة رضي الله عنهم :
لائمى في هوى الصحا
بسة ارجع إلى سقـر
لابلغت المنى ولا
نلت من رفضك الوطر
كيف تنهى عن حباقوا
مهم السم السم والبصر
وهم سادة الـورى
وهم صفة وة البشر
فأبو بكر المقـر
دم من بعده عمـر

- ٨٧٩٢ -

ثم عثمان بعده
وعليّ على الأثر
أيها الرافضي حسبك
فالحق قد ظهّر (١٢٧)

ثم دخلت في سنة سبع وثمانين

ففيها وصل إلى الفرنج ملك افرنسيس وملك انكلتيز وغيرهما ،
واخذت عكا يسر الله فتحها .

قال العماد: والغيم في هطلانه ، والبحر في هيجانه ، والسلطان مقيم
بمخيمه على شفر عم، ولطف الله به قد خص وعم ، والعاذل مخيم
قاطع نهر حيفا على الرمل ، وسفن البدل الى عكا في البحر متصلة
السبل ، والفرنج مستمرين على الحصار ، متحرزون من الاصحار، ونوب
اليزك راتبه، ووظائف الجهاد مواظبة ، وواصل من الديوان العزيز مثال
ومعه مكاتبة للملك الافضل وفيها اكرام واجلال وفضل وافضال.

وفي ثالث صفر رحل تقي الدين لتسلم البلاد التي اضيفت اليه
شرقي الفرات ، وكان له بالشام المعرة وحماه وسلمية ، وجبله ، واللاذقية،
وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر ، وسميساط وضياعها ،
وميفارقين وحصونها واعمالها وقلاعها ، وسار على أنه يرجع عن قريب ،
فأبطأ وتشوف الى افتتاح مايجاوره من البلاد ، وسار الى ميفارقين فكان
السلطان ينسب ماجرى من استيلاء الكفار على عكا بعد قضاء الله تعالى
الى غيبته ، فإنه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته ، وجور
مجاورته ، وسياتي ذكر وفاته في آخر السنة.

ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه أنه اغار على جيشير للفرنج
بطرابلس فاستاقه ، ولم يطق الكفار لحاقه ، واقتطع لخاصته منه أربعمائة
رأس تلف في الطريق منها أربعون، وغنم أبقارًا وغنمًا ، وانفذ للعماد
منها بغلة، وذلك رابع صفر.

وفي ليلة هذا اليوم القت الريح مركبا للعدو على الزيب فكسرتة،
وكان فيه خلق عظيم منهم، فغرق بعضهم وأسر بعض، وفيهم امرأتان

سبيتا. وفي ليلة أول ربيع الأول خرج أصحابنا من البلد وهجموا على العدو وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، واخذوا منهم من جيمهم جمعا عظيما منهم اثنتا عشرة امرأة ، وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك للحلقة السلطانية ، وخرج اليهم من العدو خلق ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، وقتل فيها من العدو جماعة منهم مقدم كبير، ولم يفقد من المسلمين الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه يسمى قراقوش ، وكان شجاعا له وقعات، وفي تاسع ربيع الأول بلغ السلطان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش، فأمر العادل ان يكمن بالعسكر خلف التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هو فكمن وراء تل العياضة ومعه من أولاده الصغار ، والقاضي الفاضل وانذر الفرنج ، ولم يخرج منهم أحد ، ووصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون أسيرا من الفرنج اخذوا في بيروت، فيهم شيخ كبير هرم لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق فيه قوة إلا مقدار ما يتحرك، فسأله عن مجيئه فقال للحج إلى قمامة ، وبينى وبين بلادى مسيرة اشهر، فرق له واطلقه وأعادته إلى العدو راكبا على فرس، وطلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يأذن ، وسئل عن ذلك فقال: لثلا يعتادوا من الصغر سفك الدم ويهون عليهم وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر. ثم لما أقبل الربيع توافت العساكر وفاء بموعدها، فوصلت في شهر ربيع الأول فأول من قدم الأمير علم الدين سليمان بن جندر صاحب قلعتي عزاز وبغراس ، وهو شيخ له رأي وتجربة ومنزلة كبيرة ومرتبة ، والمملك الأجد صاحب بعلبك وبدر الدين مودود والي دمشق في رجالهم وابطالهم ، وفي كل يوم يقدم أمير بعد أمير ، والله يتولى التدبير، وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون ، وهم حاشدون حافلون فوصل ملك افرنسيس فليب في عدة من عبدة الصليب ، ثاني عشر ربيع الأول في ست بطس عظام ، مملوءة بفوارس ذوي اقدام ، فقلنا ما حمل الماء إلا أهل النار ، وما أجلب للدوابر الا الدبار ، وكان عظيما عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث اذا

حضر حركم على الجميع، وما زالوا يتواعدونا به حتى قدم وصحبه من بلاده باز عظيم عنده، هائل الخلق ابيض اللون نادر الجنس، وكان يعزه ويحبه حبا عظيما، فطار من يده حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابنا وانفذوه الى السلطان، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

قال القاضي ابن شداد: ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض مشرق اللون، مارأيت بازيا أحسن منه.

قال العماد: وكان مع هذا الملك باز أشهب، كأنه عند إرساله نار تتلهب، ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله، وكان في ظن الفرنج انه يقدم في جمع جم، فلما رأوا جمعه قليلا سقط في أيديهم، فوعدهم بالمدد خلفه.

قال القاضي: وقدم بعده كند فريز وكان مقدما عظيما عندهم مذكور، كان حاصر حماه وحارم عام الرملة، وفي ثاني عشر ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية أن جماعة من المستأمنين نزلوا ناحية من جزيرة قبرس في عيد لهم، وقد اجتمع جمع كبير في بيعة قريبة من البحر، وانهم صلوا معهم صلاة العيد، فلما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان في البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتى القسيس وحملوهم الى مراكزهم وساروا بهم الى اللاذقية، وكان فيهم سبع وعشرون امرأة، وكانوا قد اغلقوا باب الكنيسة عليهم ليأمنوا افلاتهم وأسروهم بأسرهم، وكنسوا جميع ما في الكنيسة من الامتعة والاعلاق النفيسة، واقتسموها فوصل الى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة، كذا في كتاب القاضي.

وقال العماد في الفتح: وقيل حصل لكل واحد منهم على كثيرتهم

أربعمائة درهم ، وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا، وركبوا في طلبها بأسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم ، فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل.

قال العماد: كان عز الدين سامة متولي بيروت ، ولم يكن لمراكب العدو يد من الجواز بها أو بقرها ، وإذا عبرت أخذت ، وإن كانت مستعدة لحرها، فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادخار الغنى ، وكثرت في البحر غزواته، ووصل ملك الانكليز إلى قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر ، واشتغل بها عن الوصول الى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا، وكان في الزيب وهو شمالي عكا طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا، ويقطعون الطريق على الفرنج.

قال القاضي: وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والشبور في طول تلك الليلة ، حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا لها: إن السلطان رحيم القلب، وقد أذن لك في الخروج اليه، فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث الى اليك الاسلامي، وأخبرتهم بواقعها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فأنته وهو راكب على تل الخروبة ، وانا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا وأمرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه، فرق لها ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه، ولم يزل واقفا رحمة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم اليها ، فأخذته وبكت بكاء شديداً، وضمته إلى صدرها والناس

ينظرون اليها ويبكون وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ، ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكرهم مع طفلها.

قال: فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس الانس، اللهم إنك خلقتة رحيمًا فارحمه رحمة واسعة أمين.

قال: وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين ابن البنكري، وكان مقدمًا من أمراء الموصل، مفارقًا لهم طالبًا خدمة السلطان.